الدكتور عبد الله محمد سليمان هنداوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية – جامعة الازهر
فرع الزقازيق

البلاغة القرآنية
في
الإشارة والحركة الجسمية

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ – ١٩٩٥م

مطبعة الأمانة
٣ ش [illegible] – شبرا مصر ت [illegible]



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وامام المتقين وأشرف الخلق أجمعين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه الى يوم الدين . وبعد ...

فهذا بحث في روضة من رياض القرآن الكريم يتناول جانبا جديدا من بلاغته وهو الصورة الحركية بالاعضاء الجسمية التى يقصد من ورائها الدلالة على معنى مستكن فى باطن النفس الانسانية ، فان من المعانى الذهنية ما يظهر أثرها في أعضاء النفس البشرية ، فيلجأ الانسان الى التعبير عما بداخله من المشاعر الانسانية تجاه الاحداث المتباينة التى تثير شعوره نحو الرضا بشيء ما أو الفرح به أو التعجب منه أو انكاره ، أو السخرية منه والتهكم به أو الرغبة فيه أو النفور منه أو الاعراض عنه أو الخوف منه أو اظهار حركة عضوية تعبر عن شيء خلاف ما فى باطنه كما هو الشأن فى حال المنافقين . أو تصوير حدث معين بصورة حركية تظهر فى الاعضاء الجسمية ، أو تصوير صفة معنوية فى حركة عضوية ، كل هذا يحكيه القرآن وينقله لنا ويصوره فى المشاهد الحركية التى تمارسها الاعضاء الجسمية للدلالة على نكتة بلاغية تظهر من خلال السياق .

وقد يعمد النظم القرآنى الى نقل الحركة فقط للتعبير عن موقف ما من المواقف ، وقد تقترن الحركة الفعلية بالعبارة اللفظية حسبما يقتضيه الحال ويتطلبه المقام ، ومن المعلوم أن الشيء المحسوس المشاهد أقوى تأثيرا فى النفس ، وأشد علوقا

بالقلب ، وأكثر ثباتا فى الذهن من الشىء المعقول ، أى الذى يدرك بواسطة العقل ، ولذلك يقولون : « ليس الخبر كالعيان ولا الظن كاليقين » ، والمعلوم بواسطة الحس اسبق حصولا للنفس من العقلى والنظرى ، لان المشاهدة والرؤية لهما اثر كبير فى النفس متجدد، ومصداق ذلك انك لو كنت على شاطىء نهر ، وأنت تقول لصاحبك : « أنت كالقابض على الماء » فأدخلت يدك فى النهر وقلت له : انظر : هل حصل فى كفى شىء ؟ كان لاقتران الفعل الحركى بالقول ضرب من التأثير زائد على القول وحده ، وذلك لما تفعله المشاهدة من التحريك للنفس وتمكين المعنى فى القلب ٠

وسنتناول فى هذا المبحث — بمشيئة الله تعالى — الصور الحركية التى تؤديها الاعضاء الجسمية ، وأول ما يلقانا منها الصورة الحركية بالاشارة ودلالتها وحدها أو دلالتها مع اللفظ بطريق الحكاية لمن لم يشاهدها ، وقبل أن نتناول هذه الصور بالعرض والتحليل ينبغى أن نذكر كيف عرض النقاد والبلاغيون لمبحث الاشارة ومدى تصورهم لها ، وكيف انتقلت من معناها الحسى الى معان معنوية ، وبعد ذلك نتناول الحركة فى الاعضاء الجسمية باليد والوجه والرأس والعين والفم واللسان ، وغير ذلك لما يبدو من وراء التعبير بهذه المشاهد الحركية ونقلها للسامع والقارىء من أسرار بلاغية من خلال النظم القرآنى ٠

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يعم به النفع انه نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ٠

أ د / عبد الله محمد سليمان هنداوى

القسم الأول

التصوير بالاشارة (الحسية والمعنوية)

الاشـــارة

يقال أشـار اليه وشور : أو ما يـكون ذلك بالكف والعين والحاجب قال ثعلب :

نسر الهوى الا اشارة حاجب   هناك والا أن تشير الاصابع

وشور اليه بيده : أى أشـار ، وأشرت اليـه : أى لوحت اليه والحت أيضا ، وأشـار اليه باليد : أومأ ، وأشار عليـه بالرأى وفى الحديث : كان يشير فى الصلاة : أى يومىء باليـد والرأس : أى يأمر وينهى بالاشـارة ، ومنه قـوله : للذى كان يشير بأصبعه فى الدعـاء أحد أحد ، ومنه الحـديث : كان اذا أشار بكفه أشار بها كلها ، أراد أن اشـاراته كلها مختلفة فما كان منها فى ذكر التوحيد والتشـهد فانه كان يشـير بالمسبحة وحدها ، وما كان فى غير ذلك كان يشـير بكفه كلها ليكون بين الاشارتين فرق • ومنه : واذا تحدث اتصل بها أى وصل حديثه باشارة تؤكده • وفى حـديث عائشة : من أشـار الى مؤمن بحديدة يريد قتله فقد وجب دمه : أى حل للمقصود بهـا أن يدفعه عن نفسه ولو قتله • والمشيرة هى الاصبع التى يقـال لها السبابة(١) •

هذا عن الاشارة الحسية الحركية فى الدلالة على المعـانى التى يريد المرء من ورائها ايصال المعانى الى الاذهان،والاشارة

---

(١) اللسان مادة (شـور) •

وحدها قد تغنى عن اللفظ فى الدلالة على المعنى ، وقد تقترن باللفظ فتؤكد دلالته وتقويها فى نفس السامع والرائى اذ هى ترجمة له ، وهذه الاشارة الحسية هى الغاية المقصودة فى هذا البحث ، ولكن عرض البلاغيين لهذا المصطلح قد خرجوا به عن معناه الحسى الحقيقى الى معان أخرى تدور فى معظمها حول الايجاز لاسيما ايجاز القصر ، اذ يقصدون منها الايماء أو اللمحة الدالة فكما أن المشير يومىء بيده أو برأسه للدلالة على معان يقصدها ويريد افهامها للرائى كذلك المتكلم قد يريد باللفظة الواحدة أو الالفاظ القليلة الايماء الى معان كثيرة ، فالمعنى اللغوى للاشارة وثيق الصلة بالمصطلح البلاغى .

وسنتناول - بمشيئة الله تعالى - فى هذا المبحث : الاشارة الحركية ودلالتها وحدها أو دلالتها مع اللفظ ، وحكايتها لمن لم يشاهدها .

ونرى - اتماما للفائدة - أنه ينبغى أن نعرض لتطور هذا المصطلح عند البلاغيين والنقاد .

- ابن المقفع :

لعل أول من تحدث عن الاشارة وجعلها من وجوه البلاغة هو عبد الله بن المقفع عندما سئل عن البلاغة وتفسيرها فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحى

فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة فابن المقفع يرى أن الاشارة بمعنى الايجاز تعم هذه الوجوه التى ذكرها فقد حصر البلاغة فى الايجاز لشموله هذه الميادين التى تجمع أبواب البلاغة ·

ـ الجاحظ :

عقد الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » بابا للبيان وأقسامه وأنواع دلالاته على المعانى ، فاتسع مدلوله عنده حيث قال فى تعريفه له : « البيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ، لان الامر والغاية التى اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام ، فبأى شىء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع» ·

ثم ذكر أصناف البيان ودلالاته على المعانى وحصرها فى خمسة أشياء :

أولها : دلالة اللفظ ، وثانيها : دلالة الاشارة ، وثالثها دلالة العقد ، ورابعها : دلالة الخط ، وخامسها دلالة الحال أى النصبة ·

والاشارة هنا يقصد بها معناها اللغوى وهى التى تحصل ببعض أعضاء الجسم بتحريك العضو على وجه معين للابانة عن معناه الذى يريد افهامه للرائى أو للسامع على الحكاية ، فمنها الاشارة باليد وبالرأس وبالعين وبالحاجب وبالمنكب اذا تباعد الشخصان ، وقد تكون الاشارة بالثوب وبالسيف ، وقد

يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا وبين الجاحظ أن اللفظ والاشارة قد يكونان شريكان فى الدلالة على المعانى .

والاشارة : تعين على دلالة اللفظ وتقويها فى نفس السامع والرائى اذ هى تترجم عنه وقال : كثيرا ما تنوب الاشارة عن اللفظ ، وكثيرا ما تغنى عن الخط .

وفى انابة الاشارة عن اللفظ يرى أنها قد تعين ، ولايسد اللفظ مسدها ، وذلك فى أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس ، وغير الجليس ، فهناك أمور خاصة جدا لم يستطع الناس التفاهم فيها الا بالاشارة ، وذكر قول الشاعر فى دلالة الاشارة المتعينة والتى لا يسد اللفظ مسدها :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
اشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

ويقول الشاعر :

وعن الفتى تبدى الذى فى ضميره
وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا

ويقول آخر :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها
من المحبة أو بغض اذا كانا

والعـــين تنطق والافـــواه صامتة
حتى ترى من ضـــمير القلب تبيـــانا

فالعين فى الأبيات السابقة تنبىء عما فى نفس صاحبها وتكشف عما فى ضميره من الفرح أو الحزن أو الحب أو البغض وغير ذلك ممـا هو مركوز فى طبـاع النفس الانسـانية من الغرائز والمشاعر والوجدان وهذا نوع من البيان الذى يراه الجـاحظ •

ويرى أن الاشارة تبلغ أبعد من مبلغ الصـوت وأن هذا باب تتقدم فيه الاشارة الصوت يضاف الى ما سبق من الأمور التى يسترها الناس ويخفونها من الجليس وغيره حيث تتعـين الاشارة • وحسن الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللســان •

وذكر الجاحظ قولا مـرويا عن أبى شـمر عن معمر أبى الاشعث ، خلاف ما ذكره سابقا فى الاشارة وهو أن الاشـارة والحركة عند الخطبـة وعند منـازعة الرجال ومناقلة الاكفـاء تنقص من قدر الخطيب وتبين عن عجزه فروى أن أبا شمر كان اذا نازع لم يحـرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيـه ولم يحرك رأسه حتى كأن كلامه انمـا يخرج من صدع صـخرة ، وكان يقول : ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره •

ولكننا نقول ان الاشارة لا تنقص من قدر الخطيب بل هى من عوامل تثبيت كلامه فى النفوس وتمكينه فى القلوب بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أفصـح العرب كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته ، واشتد غضبه ، ومايختلج فى

صدره كان يبدو على وجهه ، وكان لحركته واشـارته أثر كبير في جودة الاداء فحركته معبرة تستلفت النظر ، وتنبه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر كما سنذكر فيما بعد .

أما الاشارة المذمومة والمعيبة عند الخطيب فهى الصادرة عن العى والتلجلج والتلعثم يلجأ اليهـا الخطيب ليوارى قصـوره وعجزه ولذلك روى عن بعضهم أنه كان يتنحنح ويتلجلج ويمسح لحيته ، ويقول عند مقاطع كلامه : « يا هناه ! ويا هذا ! واسمع منى ! واستمع الى ! وافهم عنى .. » ابن وهب الكاتب .

وجاء بعد الجاحظ ابن وهب الكاتب فى كتابه «نقد النثر» والذى عرف باسم « البرهـان فى وجوه البيـان » وقد تأثر بالجاحظ فى هذا الكتاب ولكنه عند تقسيم البيان الى أنـواعه التى يتكون منهـا لم يذكر الاشـارة على انها نوع من البيـان مستقل بنفسه كما ذكر الجاحظ ، وانمـا عدها من العبارة أى أنها تقوم مقام العبارة وتؤدى مؤداها بل قد تكون أبلغ كمـا روى عن بعضهم : « رب اشارة أبلغ من عبارة » فجعلهـا من وجوه الوحى وهو الابانة عما فى النفس بغير المشافهة من ايماء أو اشارة ورسالة ومكاتبة ... الخ يقول ابن وهب : والوحى على وجوه كثيرة فمنه الاشارة كما قال الله عز وجل « فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ... ومن الوحى : الاشـارة باليـد ، والغمز بالحاجب ، والايماض بالعين ، كما قال الشاعر :

وتوحى اليـه باللحاظ سـلامها
مخافة واش حـاضر ورقـيب

وفى موضع آخر من كتابه نراه يجعل الاشارة مرادفة للايجاز فينقل عن بعضهم فى وصف البلاغة عندما سئل عنها : « هى الاكتفاء فى مقامات الايجاز بالاشارة ، والاقتدار فى مواطن الاطالة على الغزارة » وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة
وحى الملاحظ خيفة الرقباء (١)

وابن وهب نقل هذا من كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢)

وقد تأثر قدامة بن جعفر بالجاحظ وابن وهب فجعل الاشارة من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ، وعرفها بقوله : « هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بايماء اليها أو لمحة تدل عليها » وذكر أمثلة كثيرة منها قول امرىء القيس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله
أفانين جرى غير كز ولا وانى

فقد جمع بقوله : «أفانين» جرى على ما لو عد لكان كثيرا

ومن هذا يفهم أن قدامة قد نحا بالاشارة من معناها الحسى الى معنى ايجاز القصر وهو أن يدل اللفظ القليل على المعانى الكثيرة وتحدث أبو هلال العسكرى عن الاشارة ولم يضف شيئا يذكر الى ما قاله قدامة .

---

(١) نقد النثر ص ٩٦ .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٥٥ .

يأتى بعد ذلك ابن رشيق فى العمدة فيوسع دائرة الاشارة عن سابقيه فيجعلها شاملة لانواع كثيرة من البلاغة ، لكن الايجاز هو سمة هذه الانواع جميعها يقول ابن رشيق : « والاشارة من غرائب الشعر وملحه وأنها بلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتى بها الا الشاعر المبرز والحاذق الماهر » وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح .

وذكر أمثلة لها مما ذكره قدامة من ذلك قول زهير :

فانى لو لقيتك واتجهنا لكان لكل منكرة كفاء

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه ثم قال : وهذا عند قدامة أفضل بيت فى الاشارة ، وأنواعها كثيرة منها :

١ — الاشارة الى كيفية الحدث كما فى قول الشاعر :

جعلنا السيف بين الخد منه وبين سواد لمته عذار

فأشار الى هيئة الضربة التى أصابه بها دون ذكرها اشارة لطيفة دلت على كيفيتها .

٢ — قد يشير الكلام الى معنى التشبيه كقول الراجز يصف لبنا ممذوقا :

● جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط ●

فانما أشار الى تشبيه لونه لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب .

٣ — الاشارة الى التفخيم كقوله تعالى : « القارعة ما القارعة » والواقع أن التفخيم فى الآية مستفاد من الاستفهام ومن تكرار اللفظ فلم يقل : القارعة ما هى لتقدمها فى الذكر وانما أعاد اللفظ مظهرا مستفهما عنه للتفخيم والتهويل أى

ما شأنها وما حقيقتها انهـا شيء مهـول لا يحيط بها الادراك ولا يحدها الوصف ، ولذلك كانت الاجـابة بما يكون فيهـا لا بماهيتها • فماهيتها فوق الادراك والتصور فقال تعـالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ••• »(١) •

٤ ـ ومن أنواع الاشارة : الايماء كقوله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » فأومأ اليه وترك التفسير معه أى أومأ الى التفخيم والتهويل وأبهمه أى أبهم صلة الموصول لتذهب النفس فى تفسيرها كل مذهب ايمـاء الى أنهـا بلغت حـدا لا يمكن التلفظ بها ولا سـماعها ، فحينما غرق فرعون وأتبـاعه فى اليم أصابهم من هول البحر أشياء لا يمكن أن توصف ،ولا يدرك مداها من الرعب والفزع والشـدة •• الخ ، والبلاغيـون قد أتوا بهذه الآية شـاهدا على غرض بلاغى من أغراض التعبير باسم الموصول وهو افادة معنى التفخيم والتهويل •

٥ ـ ومن أنواعها أيضا التعريض كقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم •

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مـكة لما أسلموا زولوا

فعرض بعمر بن الخطاب ، وقيل بأبى بكر رضى الله عنهما وقيل برسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض مدح •

وذكر ابن رشيق أن من أفضـل التعريض مما يجـل عن جميع الكلام قول الله عز وجل « ذق انك أنت العزيز الكريم » أى الذى كان يقال له هذا أو يقـوله وهو أبو جهل لانه قال :

---

(١) انظر فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٩٦٠ •

ما بين جبليها يعنى مكة أعز منى ولا أكرم - وقيل بل ذلك على معنى الاستهزاء ، وقد استشهد البلاغيون بهذه الآية على افادة معنى الاهانة والتحقير من الامر فى قوله تعالى « ذق » وعلى افادة الاستعارة العنادية أو الضدية التهكمية من قوله تعالى « انك أنت العزيز الكريم » أى الذليل المهان ، ففيه معنى الاستهزاء والتوبيخ والاهانة والتنقيص(١) .

٦ - ومن أنواع الاشارة : التلويح يقول ابن رشيق ومن أجوده قول النابغة يصف طول الليل :

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

- الذى يرعى النجوم - يريد به الصبح أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيذهب بالابل والماشية ، فيكون حينئذ تلويحه عجبا فى الجودة ، وضعف ابن رشيق رأى من يقول ان الذى يرعى النجوم انما هو الشاعر الذى شكى السهر وطول الليل .

٧ - من أنواع الاشارة : الكناية والتمثيل ومثل لذلك يقول الشاعر :

وما لى أبكى الديار وأهلها
وقد رادها رواد عك وحميرا
وجاء قطا الاحباب من كل جانب
فوقع فى أعطاننا ثم طيرا

فكنى عما أحدثه الاسلام ومثل .

(١) انظر تفسير القرطبى ٩/٥٩٧١ .

٨ ـ ومن أنواعها : الرمز كقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت ·

عقلت لها من زوجها عدد الحصى
مع الصبح أو مع جنح كل أصيل

يريد أنه لم أعطها عقلا ، ولا قودا بزوجها الا الهم الذى يدعوها الى عد الحصى ، وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعدا
أعد الحصى ما تنقضى عبراتى

ثم بين أصل الرمز وتطور مدلوله فقال : وأصل الرمز : الكلام الخفى الذى لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الاشارة ولعله يقصد الاشارة الحسية لا اللفظية ·· ونقل عن الفراء قوله الرمز بالشفتين خاصة ·

وذكر ابن رشيق « أكثر الناس يعيبون الكلام المصحوب بالاشارة ويرون أنها حشو واستعانة على الكلام » نحو قول أبى نواس :

قال ابراهيم بال   مال كذا غربا وشرقا

ويرد عليهم ابن رشيق مبينا أن أبا نواس لم يأت بها حشوا ، وانما أتى بها بيانا وتثقيفا ، واستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكيف بك اذا بقيت فى حثالة من الناس قد مرحت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابع يديه ، ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف · وقالوا مبلغ الاشارة أبلغ من مبلغ الصوت فهذا باب تتقدم الاشارة فيه الصوت · وقيل : حسن

الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللســان نقل هذا عن الرمانى وهو بدوره متأثر بالجــاحظ وبين أن الخطيب من بنى أمية قد استعمل الاشارة الحسية أولا ثم أتبعها باللفظ فقال ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد ، قام رجل من ذى الكلاع فقال : هذا أمير المؤمنين وأشــار بيده الى معاوية فان مــات فهذا ، وأشار الى يزيد فمن أبى وأشار الى السيف ثم قال :

معــاوية الخليفــة لا نمارى
فان يهــلك فســائسنا يــزيد
فمن غلب الشقاء عليه جهلا
تحــكم فى مفــارقه الحــديد

وبــين ابن رشيق أن أبا نواس جــاء باشارات لم تجــر العادة بمثلها وذلك أن الامين بن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعرا لا قافية له قال نعم ، وصنع من فوره ارتجالا :

ولقــد قلت للمليحــة قولى
من بعيــد لمن يحبك اشارة قبلــه
فأشــارت بمعصــم ثم قالت
من بعيد خلاف قولى اشارة لا لا
فتنفســت ســاعة ثم الى
قلت للبغل عند ذلك اشارة امش

٩ — ومن الاشارات الحذف وأنشد الفراء :

قلت لهــا قومى فقــالت قاف

يريد قد قمت . ولكن هذا النوع من الحذف لا دليل عليــه فهو من قبيل التعمية والالباس،والبلاغة والبيان بمنأى عنهما.

١٠ – ومن أنواعها التورية تقول علية بنت المهـدى فى ظـل الخـــادم :

أيا سرحة البســتان طــال تشوقى
فهل الى ظـــل اليك ســـبيل

فـورت بظـل عن طل ، وهى ليسـت التورية بمعنـاها الاصطلاحى عند البلاغيين ، لان لفظة « ظل » لا تحمل معنيين أحدهما قريب غير مراد ، والآخر بعيد مراد كما هو حدها عند البلاغيين وقد يكون هذا من الجناس المصحف المضمر .

١١ – ومن أنواع الاشارة : الكناية مثل قـول الشاعر : امـرىء القيــس :

وبيضة خدر لا يرام خبــاؤها تمتعت من لهوبها غير معجل

كنى بالبيضة عن المرأة .

١٢ – وعلى الرغم مما ذكره ابن رشيق فى الكنــاية فانه عاد اليها مرة أخرى وسماها باسم آخر وهو التتبيع ، ولعـل ما ذكره فى النوع السابق وسماه كناية انما هو الكنــاية عن موصوف ، ويقصد بالتتبيع الكناية عن صفة وقد سماه قدامة الارداف يقول ابن رشيق :

« ومن أنواع الاشــارة التتبيع ، وقوم يسمونه التجـاوز وهو أن يريد الشاعر ذكر الشىء فيتجـاوزه ويذكر ما يتبعه فى الصفة وينوب عنه فى الدلالة عليه » ، وأول من أشار الى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحى فتيت المســك فوق فراشــها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وعلق عليه ابن رشيق بقوله : أراد أن يصفها بالترفه والنعمة ، وقلة الامتهان فى الخدمة وأنها شريفة مكفية المؤنة فجاءها بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة .

١٣ ـ ومنها : اللحن ويسمى المحاجاة ـ وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وان كان على غير وجهه ، ثم قال : ويسميه الناس فى وقتنا « المحاجاة » لدلالة الحجا عليه ، وذلك نحو قول الشاعر يحذر قومه :

خلوا على الناقة الحمراء أرحلكم
والبازل الاصهب المعقول فاصطنعوا
ان الذئاب قد اخضرت براثنها
والناس كلهم بكر اذا شبعوا

أراد بالناقة الحمراء : الدهناء ، وبالجمل الاصهب : الصمان أى الارض الصلبة ذات الحجارة بجانب الرمل ، وبالذئاب : الأعداء .

١٤ ـ ومنها : اللمحة كقول أبى نواس :

وشمسه حرة مخدرة ليس لها فى سمائها نور

فقوله : « حرة » يدل على ما أراد فى بقية البيت اذ كان من شأن الحرة الخفر والحياء ولذلك جعلها مخدرة ، وشأن القيان والمملوكات التبذل والتبرج .

وكثير من هذه الانواع كانت موجودة عند السابقين الا أنها لم تذكر تحت باب واحد هو باب الاشارة كما ذكر ابن رشيق ، وانما كانت متفرقة فى مواضع مختلفة فجمعها

ابن رشيق وضم النظير الى نظيره ، وبذلك يكون قد وسع هذا الباب حتى جعله شاملا لهذه الانواع كلها ، ويلاحظ ان الاشارة عنده شملت الاشارة اللفظية الى المعنى المقصود والاشارة الحسية التى يستعان بها على تمكين الكلام فى النفس وتثبيته فى القلب ، سواء أكانت الاشارة الحسية مصاحبة للفظ أم تسبقه ثم يوتى باللفظ كما بينا ٠

وتحدث ابن سنان الخفاجى ت ٤٦٦هـ عن الاشارة أثناء حديثه عن تقسيم دلالة الالفاظ على المعانى ، وهى ثلاثة أقسام أحدها المساواة وهو أن يكون المعنى مساويا للفظ ، والثانى : التذييل وهو أن يكون اللفظ زائدا على المعنى وفاضلا عنه والثالث : الاشارة وهو أن يكون المعنى زائدا على اللفظ أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الاشارة واللمحة، والاشارة عند ابن سنان تعنى ايجاز القصر على ما قرره متأخرو البلاغيين ، ولم يلتزم ابن سنان بمصطلح الاشارة وانما كان يطلق عليه الايجاز والاختصار ، ويرى ابن سنان أن الاشارة أو الايجاز ليس محمودا فى كل المواضع ولذلك اشترط شرطا لصحة الايجاز المحمود وهو أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة ، لا أن تكون الالفاظ لفرط ايجازها قد ألبست المعنى وأغمضته حتى يحتاج فى استنباطه الى طرف من التأمل ودقيق الفكر ٠ وتقول : ان التأمل ودقة الفكر ليسا معيبين فى حد ذاتهما ، وانما يعابان اذا كان منشؤهما غموض المعنى والباسه مما يؤدى الى مجهود فكرى وتعب عقلى زائد عن حاجة المعنى ، أما اذا كان دقة الفكر لاستيعاب المعانى الكثيرة التى يدل اللفظ عليها دلالة بينة فهو محمود ، لان طريقه الوصول الى المعانى الدقيقة والاغراض الجليلة ٠ واذا كان ابن سنان قد جعل الاشارة

مرادفة لايجاز القصر حيث فرق بينه وبين ايجاز الحذف فإنه جعل التذييل مرادفا للاطناب بدليل مقابلته بالقسمين الاخرين وقد خالف فى ذلك نهج المتقدمين الذين جعلوا الاطناب أعم من التذييل ، وجعلوا التذييل نوعا منه (١) .

ويرى ابن سنان أن الاصل فى مدح الايجاز والاختصار فى الكلام أن الالفاظ غير مقصودة فى أنفسها،وإنما المقصود هو المعانى والاغراض التى احتيج الى العبارة عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق الى المعانى التى هى مقصودة فالمحمود هو أخصر الطرق وأقربها سلوكا الى المقصد(٢) .

وتحدث ابن النقيب فى كتابه الذى نسب خطأ الى ابن القيم عن الاشارة ، وسماها الوحى وعرفها بقوله : هى أن تطلق لفظا جليا تريد به معنى خفيا ، وهو بهذا التعريف لا يقصد الاشارة الحسية أو الحركية ، وانما يريد الاشارة اللفظية الى المعانى الخفية ، وقسمها أربعة أقسام ، جعل القسم الاول منها مختصا بالاشارة الى الشىء الحسن كقوله تعالى : « وفرش مرفوعة » أشار به الى نساء كرام ، ومنها قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » اشارة الى عفافهن ، فالاشارة عنده دالة على المكنى عنه،وهذا يدل على أن ابن النقيب خص الاشارة فى أحد أقسامها بالدلالة على الشىء الحسن ، والقسم الثانى منها جعله خاصا بايجاز القصر كما صنع السابقون حيث قال : « والثانى أن يكون اللفظ القليل

---

(١) الصيغ البديعى فى اللغة العربية د. أحمد موسى ص ٢١٤ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ .

مشتملا على المعنى الكثير وذكر الأمثلة التى ذكرها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين للايجاز منها قوله تعالى : « فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » جمع ما تميل اليه النفوس من الشهوات وما تلذه الاعين من المرئيات ، ومنها قوله تعالى : « فأوحى الى عبده ما أوحى » والثالث من أنواع الاشارة ما يفعله أرباب هذه الصناعة من المعميات والألغاز ، والرابع من أقسامها : التورية ·

فالقسم الاول : من الاشارة عند ابن النقيب داخل فى الكناية ، لان المعنى المكنى عنه قد يكون حسنا وقد يكون قبيحا أما تفرقته بين الاشارة والكناية بأن الاشارة فى الحسن والكناية فى القبيح فهو تكلف وتمحل منه ·

وقد ذكر أمثلة للقسم الاول من الاشارة تكررت فى كتب البلاغيين على انها من الكناية عن صفة منها قولهم : فلان طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد ·

وتحدث صفى الدين الحلى عن الاشارة وجعلها من الالوان البديعية فى كتابه المسمى : « شرح الكافية البديعية » وهى عنده تعنى الاشارة اللفظية بقليل من الكلام الى معان كثيرة ، وربط بينها وبين الاشارة الحسية باليد وغيرها على نحو ما فعل ابن أبى الاصبع المصرى فقال : وهى — أى الاشارة — عبارة عن أن يشير المتكلم الى معان كثيرة بكلام قليل يشبه الاشارة باليد ، فان المشير بيده يشير دفعة واحدة الى أشياء لو عبر عنها بلسانه لاحتاج الى ألفاظ كثيرة · ومن أمثلتها فى

(١) الفوائد المشوق ·
(٢) شرح الكافية البديعية ·

الكتاب العزيز قوله تعالى : «وغيض الماء» فانه سبحانه وتعالى أشار بهاتين اللفظتين الى انقطاع مادة المطر ونبـع الارض ، وذهاب ما كان حاصلا من الماء عـلى وجهها من قبل ، وكقـوله تعالى : « فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين » ولو شرح ذلك لملأ الاوراق .

وتحدث عن الاشارة علم من أعلام المغرب هو أبو محمـد القاسم الانصارى السلجماسى من نقاد القرن الثـامن الهجرى فى كتـابه « المنزع البـديع فى تجنيس أسـاليب البـديع » والسلجماسى قد جمع بين الثقافتين اليونانية والعربية فنجـده فى كتابه فيلسوفا منطقيا يتضح هـذا فى منهاج كتـابه كله يعتمد على اخضاع المصطلحات والمفاهيم النظرية للتقسـيمات الفلسفية والمنطقية متأثرا فى ذلك بالمكتبة اليونانية من الخطابة والشعر والمنطق لارسطو والفلسـفة الاسلامية من مؤلفـات الفارابى وابن سينا ومنهاج تقسيماته يدور حـول الانطلاق من الكليات بوصفها أجناسا عالية قسم اليها مباحث منـزعة تتفـرع عنها تنازليا تقسـيمات من أجنـاس متوسطة تحتهـا أنـواع متعـددة .

وهو أيضـــا ناقد بلاغى مزج البـلاغة بالنقـد ومزج الفلسفة بالبلاغة فنجده عند ذكر التقسيمات يذكر الأمثلة له من القرآن الكريم أو من عيون الشعر العربى ويحللها تحليلا فلسفيا لا يخلو من مسحة أدبية ودراية بما تحتويه من معان ونكات بلاغية فمبـاحث منزعه منهـاج متكامل بين الثقافتين اليونانية والعربيـة فهو عبـارة عن مجموعة من المصـطلحات والمفاهيم الفلسـفية التحليل والمنطقية التقسـيم ، والبلاغية الروح والنقدية التنظير والتطبيق .

وسوف نقف من خلال منزعه على معالجته لمبحث « الاشارة» والاشارة عنده من الأجناس العالية العشرة التى يدور عليها كتابه . « فالاشارة عند الجمهور مثال أول لقولهم أشار يشير كأنه الايماء الى الشىء والالماع نحوه ، وهو منقول الى هذه الصناعة وموضوع فيها على العبارة عن المعنى بلوازمه وعوارضه المتقدمة أو المتأخرة أو المساوقة من غير أن يصرح لذلك المعنى بلفظ أو قول يخص ذاته وحقيقته فى موضوع اللسان ، واسم الاشارة هو اسم لمحمول يشابه به شىء شيئا فى جوهره المشترك لهما اذ كان جنسا عاليا يحمل على نوعين ـ تحته ـ متوسطين الأول : الاقتضاب والثانى الابهام .

النوع الأول : الاقتضاب وهو اقتضاب الدلالة ، وذلك أن يقصد الدلالة على ذات معنى فيترقى عن التعبير المعتاد ، وعبارة التأخر من الجمود على مسلك وأسلوب واحد من أساليب العبارة ، ونحو واحد من أنحاء الدلالة فيظهر المقدرة على العبارة عن المعانى ، وبعد مرماه فى التصرف فى مجال القول وتوسعه فى نطاق الكلام فيقتضب فى الدلالة على ذات المعنى والدلالة عليه باللوازم والعوارض المتقدمة أو المتأخرة أو المساوقة اعتمادا على ظهور النسبة بين اللوازم وبين الملزوم وقوة الوصلة والاشتراك بينهما .

وبعد هذا التعريف الذى اتضح فيه فلسفته الخاصة لبيان ماهيته يوضح مغزاه وأثره فى النفس والسبب المؤدى الى ذلك فيقول : « وفى ذلك ما فيه من الالتذاذ للنفس والاطراب لها بالغرابة والطراءة التى لهذا النوع من الدلالة . والسبب فى ذلك كله هو ما جبلت النفس عليه ، وعنيت به وجعل لها من إدراك النسب والوصل والاشتراكات بين الأشياء وما يلحقها

عند ذلك ويعرض لها من انبساط روحانى وطرب » ثم يقول :
وهـذا النوع هو جنس متوسـط يشـتمل على أربعة أنواع .
الأول التتبيع . والتتبيع هو المدعو الارداف . والمدعو عند قوم
التجاوز ، وحقيقته : هو اقتضـاب فى الدلالة على الشىء بلازم
من لوازمه فى الوجود وتابع من توابعه فى الصفة . ونقل عن
صاحب الصـناعتين تعريفا آخـر له فقال : « وقال قوم هو أن
يريد الدلالة على ذات معنى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى
لكن بلفظ هو تابع وردف » ونقل تعريفا آخر يبدو أنه أخذه
من ابن رشيق فى « العمدة » مع تصرف يسـير فى العبـارة ثم
ذكر أمثلة له من الشعر نذكر منها قول امرىء القيس فى معلقته :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشـها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فانما أراد أن يصفها بالترف والنعمة وقـلة الامتهان فى
الخدمة وأنها شريفة مكفيـة المؤونة فجـاء بما يتبع ذلك ، وعبر
عن الشىء بلازمه » .

وهذا مما عرف عند البلاغيين بالكناية عن صفة . ويبدو
أن الذى يستحق اسم الكناية هو الكناية عن موصوف فقط بدليل
أنه قسـم الاقتضـاب الى أربعة أنواع ذكر النوع الأول وسـماه
التتبيع أو الارداف ، وهو الكناية عن صفة كما ذكرنا والنوع
الثانى هو الكناية ، وكل الأمثلة التى ذكرها تحت هذا النوع من
الكناية عن موصـوف منها قوله تعالى « وقالوا لجلودهم » يعنى
فروجهم ، وقوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط » والنوع
الثالث : التعريض : وهو اقتضـاب الدلالة على الشىء بضـده
ونقيضـه يعنى أنك فى الظاهر تريد اثبات الحكم لشىء والمراد

نفيه عن ضده ونقيضه فقدما قيل : « وبضدها تتبين الأشياء »
ومن صوره قوله عز وجل : « ذق انك أنت العزيز الكريم »(١)
وقوله تعالى : « انك لأنت الحليم الرشيد »(٢) ، وهذان المثالان
ذكرهما البلاغيون للاستعارة التهكمية فقد استعير اللفظ لضد
معناه فالعزيز الكريم بمعنى الذليل المهان فاستعير العزة والكرم
للذلة والمهانة بتنزيل التضاد منزلة التناسب واستعير الحلم
والرشد للغواية والسفه ثم اشتق منهما حليم بمعنى غوى
ورشيد بمعنى سفيه على التضاد ، وهذا الكلام على سبيل التهكم
والسخرية ولذلك فان هذا الكلام يكون أغيظ للمتهكم به ويكون
وقعه على نفسه أشد وآلم من غيره . ومثله قول جرير لشاعر
تسمى زهرة اليمن :

ألم تكن فى وسوم قد وسمت بها
من كان موعظة يا زهرة اليمن

وكان هذا الشاعر قد قال :

أبلغ كليبا وأبلغ عنك شاعرها
أنى الأعز وأنى زهرة اليمن

النوع الرابع : التلويح وهو اقتضاب الدلالة على الشىء
بنظيره واقامته مقامه ، ومن صوره قوله :

تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

يعنى الصبح أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيهيب بالماشية

---

(١) سورة الدخان آية ٤٦ .
(٢) سورة هود آية ٨٧ .

على جهة النظير ، وفي التحقيق أنها استعارة مكنية معتمدة على خيال طريف حيث شبه النجوم بالسوائم المنتشرة في الكلأ للرعى ثم حذف المشبه به وهي السوائم ورمز اليها بشيء من لوازمها وهو الرعى ، فالنجوم سوائم ترعى اى كأنها في انتشارها على رقعة السماء اشبهت السوائم المنتشرة في الكلأ ، ونفى الشاعر عودة الراعى ليرجع بسوائمه الى مرتعها فسوف تظل باقية في موضعها في السماء لا تعبأ بهذا الشاعر المهموم ، والمراد من الراعى هنا الصبح حيث تطل علينا استعارة أخرى مكنية : شبه الصبح بانسان يرعى ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية ، وقرينتها اثبات الرعى للصبح وهى تخييلية وما قاله صاحب المنزع يشير الى الاستعارة المكنية الثانية في البيت .

النوع الثانى من القسمة الأولى : الابهام ، والابهام هو نوع متوسط تحته نوعان الأول : التنويه ، والثاني : التعمية .

والتنويه : هو الاشادة بذكر الشيء والاعظام والاكبار له ، وهذا النوع له أثره في البلاغة وله موقعه في النفس حيث يجعلها تتخيل ما ينطوى عليه اللفظ المبهم من معان كثيرة تذهب في تصورها النفس كل مذهب ولذلك يقول السلجماسى في بيان بلاغة هذا النوع وأثره في النفس : « وذلك لما في ابهام الشيء من التهويل والاكبار له والتفخيم لشأنه لطموح النفس فيه كل مطمح وذهابها في شأنه كل مذهب ، والسبب في ذلك هو ولوع النفس بتصور المعانى وعنايتها بتحصيلها وتفهمها ، فمتى ورد عليها اللفظ . — والألفاظ كما قيل : خدمة المعاني والجسر المنصوب اليها والى تعريفها — اشرأبت ونزعت الى تصور المعنى المدلول عليه

باللفظ ، فاذا حاولته فانبهم عليها هالها الأمر ، وطمحت فيه كل مطمح ، وذهبت فى تأويله – لاتساعه – كل مذهب •

ثم يقول : وهذا النوع أى : التنويه – هو جنس متوسط تحته نوعان : الأول : التفخيم ، والثانى : الايماء •

النوع الأول : التفخيم ، وصورته قول الله عز وجل : « الحاقة ما الحاقة » وقوله تعالى : « القارعة ما القارعة » ومنه قول الشاعر :

دع عنك نهبا صيح فى حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل

ولم يبين السلجماسى حقيقة هذا التفخيم من الأمثلة ، وهو مستفاد من « ما » الاستفهامية المفيدة للتعظيم وتكرار الاسم الواقع عليه التعظيم وهو مغن عن الضمير الرابط ، فكأنه قيل : الحاقة أى شىء هى أنها شىء عظيم مهول لا يكتنهه اللفظ ولا يحيط به الوصف ، ومن ثم تذهب النفس فى تصور هوله على نحو ما بين السلجماسى من فائدة هذا النوع وبيان سره البلاغى • والنوع الثانى : الايماء ، وصورته قوله عز وجل : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » وقول كثير :

● وخلفت ما خلفت بين الجوانح ●

فقوله : « ما غشيهم » و « وما خلفت » ايماء • وبيان ذلك : أن قوله : « ما غشيهم » يفيد ما أفاده قوله « فغشيهم من اليم » اذ من المعلوم أنه غشيهم غاش ، فتعين أن المقصود منه التهويل أى بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يستطاع وصفه ، ويقول

الزمخشرى : « هو من جـوامع الكلم التى تستقل مع قلتهـا بالمعانى الكثيرة ، وقد ذكره البلاغيون فى مبحث التعريف أى تعريف بالموصولية تعريف المسند اليه .

النوع الثانى : التعمية . هذا النوع جنس متوسط تحته أربعة أنواع : الأول : اللحن . الثـانى : الرمز . الثـالث : التورية . الرابع : الحذف .

وقد مثل لهذه الأنواع الأربعة من الشعر فقط .

فأبو محمد القاسـم السـلجماسى يريد ما يشير اليه اللفظ بلوازمه وعوارضـه الدالة على غرض المتكلم وهذا ما يندرج تحته الأنواع الأربعة للجنس الأول وهو الاقتضـاب . اذ يكون تحته التتبيع ، والكناية ، والتعريض ، والتلويح ، أو ما يشير اليه اللفظ المبهم من معان كثيرة تذهب فيهـا النفس كل مذهب فى تصور مداها . وهذا هو المفهوم من النوعين المتفرعين من النوع المتفـرع عن الجنس المتوسط الثانى وهو الابهـام الذى تحتـه نوعان : الأول : التنويه والثـانى : التعمية ، والأول : التنويه يتفرع منه : التفخيم ، والايماء ، والتعمية يتفرع منها أربعة أنواع هى : اللحن ، والرمز ، والتورية ، والحذف .

والاشارة الحسية جاءت فى القرآن فى موضعين أولهما : فى سورة آل عمران ما جاء على لسان زكريا ـ عليه السلام ـ عندما طلب من ربه آية أى علامة يعرف بها أن امرأته صارت حبلى ليتلقى النعمة عند مجيئها بالشكر قال تعالى : « رب اجعل لى آية قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا »(١) وانما

---

(١) سورة آل عمران آية ٤١ .

خص تكليم النـاس دون غيرهم ليعلمـه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بذكر الله وتسبيحه فلا ينقطع قلبه ولسـانه عن استحضـار عظمة الله بذكره وتسبيحه شكرا له على هذه المنة العظيمة ، ولذلك قال عقيب الآية السـابقة : « واذكر ربك كثيرا وسـبح بالعشى والابكار » ، ولما عـلم المولى عز وجل — أنه لا يمكنه التحـرز من الناس فى هذه المدة ، وأن له أمورا قد تكون عادية يستلزم قضاؤها الحديث مع الناس ، استثنى سبحانه من لغة التخاطب بالكلام لغة الرمز والاشارة فقال : « الا رمزا » أى الا اشارة بيد أو رأس أو غيرهما يعنى يراد من الرمز الدلالة الحركية للأعضاء الجسمية غير المصحوبة بالكلام للدلالة على شيء ما كما يكلم الناس الأخرس بالاشارة ويكلمهم • وقيل : ان الاستثناء هنا منقطع ، لأن الرمز ليس من جنس الكلام ، اذ الرمز الاشارة بعين أو حاجب أو نحوهمـا ، فالكلام المراد فى الآية انمـا هو النطق باللسان لا الاعلام بما فى النفس • وقيل : انه متصل، لأن الكلام لغة يطلق بأزاء معـان الرمز والاشـارة من جملتها وأنشدوا شواهد على ذلك منها :

اذا كلمتنى بالعيون الفواتر ردت عليها بالدموع البوادر

وقال آخـر :

أرادت كلاما فاتقت من رقيبها فلم يك الا ومؤها بالحواجب

وقد استعمل الناس ذلك فقال حبيب :

كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه

وقد اختار الزمخشرى هذا الوجه حيث قال : « ولما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمى كلاما » .

والموضع الثانى جاء فى سياق قصة مريم عندما طلب منها أن تصوم عن الكلام عنـدما ترى أحـدا من البشر ، وتكتفى بالاشارة ، فعندما اتهموها بالزنا المفهوم من قولهم فيما حكاه القرآن : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سـوء وما كانت أمك بغيا »(١) أشارت اليه كأنها بهذه الاشارة تقول لهم : هو الذى يجيبكم اذا ناطقتموه ، وقيل : لما أشارت اليه غضبوا ، وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا من زناها .

فالاشارة تستخدم وتنزل منزلة الكلام حين يتطلبها المقام ويقتضيها الحال ، فحال زكريا عليه السلام حال شكر على هذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تستلزم عقل اللسان عن كل ما سوى الله ، والانصراف بالكلية الى شكر المنعم بذكره ودوام تسبيحه مدة ثلاثة أيام بلياليها . ولذلك يقول الزمخشرى مبينا مدى مطابقة الجواب للسؤال « وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه »(٢) .

أى أحسن الجواب أن يراعى فيه ـ بعد المناسبة فى المعنى ـ المناسبة فى اللفظ كما ذكر أنه لما طلب الآية للشكر أجيب بأن آيتك أن تحبس لسانك الا عن الشكر .

والحـديث النبوى الشريف قد سـلك طريق التصـوير

---

(١) سورة مريم آية ٢٨ .
(٢) الكشاف ٤٢٩/١ .

بالاشارة والحركة والرسم فكان لحركته صلى الله عليه وسلم واشاراته أثر كبير فى اجادة الأداء فحركته واشاراته وقعت موقعها فى النظم النبوى الشريف ، ومن ثم كانت معينة على الفهم ملفتة للنظر طاردة الشرور والملل مشركة فى المتابعة أكثر من حاسة فالناظر يرى بالاشارة ويسمع العبارة ، ويذكر كل منهما بالأخرى فهى تنبه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر •

وقد كان الصحابة — رضوان الله عليهم — يتلقون الأحاديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعنون كثيرا بنقل مشاهد حركته واشاراته صلى الله عليه وسلم ، لأن فى هذه المشاهد عونا على ادراك أهمية الأمر المشار اليه بالحركة كقوله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » وأشار الى صدره الشريف وكررها ثلاث مرات ففى الاشارة الحسية وتكريرها وتكرير العبارة دلالة على أهمية القلب لأنه الاساس فى كل عمل يصدر عن الانسان فمنه تتوجه النيات والمقاصد « انما الأعمال بالنيات » ، وقد يراد من الاشارة المبالغة فى الوصف كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ، فجل ضحكه صلى الله عليه وسلم فى حد التبسم ، وهذا لا يمنع أن يضحك فى أحوال أخر قليلة ضحكا أعلى من التبسم ، وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللهوات • فقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل فأصابه انما كان ذلك سرورا بحنكته فى الرمى ودقة تصويبه •

وقد يراد تأكيد المعنى فى نفوس المخاطبين بالحركة والاشارة الحسية المشاهدة كما روى عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان

يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه ، وهذه الاشارة للدلالة على القوة وتأكيد التماسك الذى ينتج عن اتحاد المؤمنين واجتماع كلمتهم وتعاونهم وتعاطفهم فيما بينهم مما يؤدى الى تقوية بعضهم لبعض • وقد يتدرج الرسول بانتقاله من حال الى حال أخرى حين يحدث لبيان عظم الأمر الذى يحدث عنه وشدة خطره وفداحة ضرره فيغير من جلسته كما فى الحديث الذى روى عن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يارسول الله قال : « الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئا فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور » فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت » فجلوسه صلى الله عليه وسلم بعد الاتكاء انما كان لبيان عظم ذنب مرتكب قول الزور وللتأكيد على أهمية الموضوع الذى يتحدث فيه ، ولذلك كرر عبارة : « ألا وقول الزور » حتى تمنى أصحابه أن يسكت اشفاقا عليه •

وقد استخدم صلى الله عليه وسلم أصبعيه السبابة والوسطى للاشارة الى بيان مدى شدة قربه صلى الله عليه وسلم فى الجنة من كافل اليتيم فقد روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار الراوى بالسبابة والوسطى كما فعل صلى الله عليه وسلم •

وفى حديث روى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه وكذلك فانه يستعمل الاشارة نفسها عندما يريد أن يقرر أن بعثته مقاربة لقيام الساعة ، والقرب والبعد أمور نسبية • عن أنس قال : قال رسول الله

صـلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والسـاعة كهاتين وأشـار بالسبابة والوسطى » .

وقد يشير صـلى الله عليه وسلم الى فمه ، وذلك حـدث عندما كان يتحدث عن موقف الناس يوم القيامة ، وعن مـكان ارتفـاع بحيرة العرق بالنسـبة الى أجسامهم فعن المقـداد بن الاسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل » ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق . فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما قال الراوى : فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه .

وقد يشير صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة ويضعها على الارض ثم ينقلها ، فقد جمع أصابعه فوضعها عـلى الارض ثم قال : « هذا ابن آدم » ثم رفعها فوضعها قبل ذلك قليلا وقال : « هذا أجله » ثم رمى بيده أمامه وقال (وثم أمله) ان هـذا التنقل باليد من مكان الى مكان ليصور للمخاطبين قرب الأجـل وطـول الأمل وبعـده ليكون فى هذه الاشـارة تأكيد للمعنى وترسيخه فى الذهن وتثبيته فى القلب .

والحديث النبوى فيه كثير من هذه الاشـارات وما ذكرناه انما هى أمثلة قليلة من اشاراته صلى الله عليه وسلم .

وقد يؤكد صلى الله عليه وسلم باشارته على فعل خـارق للعـادة ، وذلك بوضـع السبابة فى الفم اشارة الى الرضـاع وذلك فى حديث الثلاثة الذين تكلموا فى المهد فقد كلم الطفل

الرضيع أمه ثم رجع الى الرضاعة فحكى النبى صلى الله عليه وسلم رضاعته بوضع أصبعه السبابة فى فيه فجعل يمصها

والاشارة الحسية قد يؤخذ بها فى الأحكام الفقهية فقد روى ابن القاسم عن مالك أن الاخرس اذا أشار بالطلاق أنه يلزمه ، وقال الشافعى فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعة والطلاق • وقال أبو حنيفة ذلك جائز اذا كانت اشارته تعرف ، وان شك فيها فهذا باطل، وليس ذلك بقياس ، وانما هو استحسان(١) •

وقد تكون الاشارة واضحة فيؤخذ بها فى العقيدة التى هى أصل الديانة فقد حكم النبى صلى الله عليه وسلم باسلام أمة سوداء حين قال لها أين الله ؟ فأشارت برأسها الى السماء فقال : اعتقها فانها مؤمنة ، فقد حكم صلى الله عليه وسلم بايمائها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ، وفى هذا دليل على أن الاشارة يؤخذ بها فى سائر فروع الدين من الاحكام الفقهية المختلفة اذا كانت مفهومة وواضحة •

وأما الفقهاء فقد تحدثوا عن الاشارة وجعلوها طريقا من طرق الاستنباط فى مجال الاحكام الفقهية ، ولكنهم لم يريدوا بها الاشارة الحسية باليد أو نحوها وانما أرادوا بها ما يشير اليه النظم من معنى لم يسق لأجله لعدم قصد المتكلم له فى نفسه ، لكن السامع أو القارىء يعلمه بامعان النظر والتأمل فى معنى النظم من غير زيادة عليه ولا نقصان • اذا فهى دلالة نظمية

---

(١) تفسير القرطبى ١٣٢٣/٢ •

وهى غير مقصودة للمتكلم بهذا النظم ، وقد ربطوا بينها وبين الاشارة الحسية الحركية المصاحبة للكلام حيث قال الامام الغزالى فى المستصفى : « ووجه تسمية هذه الدلالة اشارة هو أن المتكلم قد يفهم باشاراته وحركته فى أثناء كلامه ما لايدل عليه نفس اللفظ فيسمى اشارة ، فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به ويبنى عليه،وقد سبق أن بينا ما فى قول المرأة عندما رأت بعلها يطحن الرحى بيديه — وهى حالة مهينة عند العرب — فاستفهمت منكرة لما رأته منه فقالت : أبعلى هذا بالرحى المتقاعس ؟ ولم تكيف بهذا الاستفهام بل صاحبته بالاشارة الحركية المعبرة عن معنى لا ينهض به الاستفهام فحكى لنا الشاعر حركتها لمشاهدته اياها بقوله : تقول : وصكت وجهها بيمينها أبعلى ... فاعلمنا بهذه الحركة . أولا : مدى قوة استنكارها لما يفعله زوجها . ثانيا : تعجبها من زوجها حين يقوم بهذا الفعل .

وذكر الفقهاء أمثلة للاشارة المستنبطة من النظم منها : ما يشير اليه قوله تعالى : « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى » ما سيق له نظم الآية هو أن امرأة عمران نذرت جنينها لله فطلبت من الله قبول هذا النذر وهذا معنى قد وضعت له عناصر العبارة ولكن يفهم من النظم معان أخر لم يسق النظم لها ولم يقصد اليه المتكلم من ذلك : أن النذر يصح أن يعلق بالفطر وفى المستقبل فيستقيم شرعا أن ينذر العبد ما فى بطن شاته بعد الولادة ، وأن النذر بما جهل نوعه جائز فامرأة عمران نذرت ما فى بطنها ولم تدر نوعه ، وأن للأم مع الولاية على وليدها نصيبا فمن ملك نذر

شىء ملك الولاية عليه ـ فهذه معان تستنبط من نظم الآية ، وان لم يكن قد سيق النظم لأجلها ٠

وقد يشير النص الى حكم فقهى بانضمامه الى نص آخر كما فى قوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، واذا كانت مدة الارضاع قد حددت قبل ذلك فى قوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة» وقوله تعالى : « وفصاله فى عامين » فان الباقى من الثلاثين شهرا بعد تمام الحولين هو ستة أشهر فتكون هذه هى أدنى مدة للحمل وقد فهم ذلك كبار الصحابة حيث فقه الامام على ـ كرم الله وجهه ـ وابن عباس رضى الله عنهما من الجمع بين آية البقرة وآية الأحقاف أن أدنى مدة الحمل ستة أشهر ، فقد روى أن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أمر برجم امرأة قدولدت لستة أشهر فقال له : على ـ كرم الله وجهه ـ قال الله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، وقال : «وفصاله فى عامين» وروى أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ سأل الناس عن ذلك فقال له ابن عباس مثل ذلك فرجع عثمان الى قوليهما(١) ٠ وضم نص الى نص آخر لاستنباط معنى منهما باب عجيب لا يتنبه اليه الا النادر من أهل العلم ، فان الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به ٠ وقد أشار الامام عبد القاهر الى أن هذا من أسرار البلاغة اذ أنه قائم على النظر فى أمر المعانى كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق(٢) ٠

---

(١) انظر اصول السرخسي ٢٣٧/١ وسبل الاستنباط من الكتاب والسنة للدكتور / محمود توفيق محمد سعد من ص ١٨٩ الى ١٩١ ٠
(٢) دلائل الاعجاز ٠

وقد ألف بعض علماء الفقه رسائل فقهية حول الاشـارة بالأصبع السبابة (المسبحة) وتحريكها فى التشـهد • منهم : ابراهيم بن حسين بن أحمد بيرى (١٠٢٣ ـ ١٠٩٩) هـ فقيه من فقهاء الحنفية بمكة المكرمة تبحر فى العلوم وحرر المسائل وانفرد بعلم الفتوى له أكثر من مائة كتـاب ورسـالة منها : « رسالة فى حكم الاشارة فى التشهد » • ومنهم محمد بن عبد رب الرسول من فقهاء الشافعية استقر بالمدينة وتصـدر فيها للتدريس له رسالة فى الاشارة بعنوان « الاغارة المصبحة على مانعى الاشـارة بالمسبحة » ومنهم : محمـد أمين بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن عابدين له رسالة أيضا فى الاشارة بعنوان : « رفع التردد فى عقد الأصـابع عند التشـهد » • وللشيخ عبد العزيز بن محمد الصديق الغمارى ـ من المعاصرين ـ رسالة تقع فى تسـع صفحات يرجح فيهـا الاشـارة وعدم التحريك وعنوانها : « الانارة بما ورد فى تحريك المصلى أصبعه عند الاشارة » •

وللعلامة المحدث الفقيه : ملا على بن سلطان محمد القارى المتوفى سنة ١٠١٤هـ رسـالة فى الاشـارة بعنوان : « تزيين العبارة لتحسين الاشارة » وبذيله رسالة بعنوان : « التدهين للتزيين على وجـه التبيين » وهو بحث فقهى حـول الاشـارة وتحريكها فى التشهد • وقد استدل الشيخ ملا القارى على حسن الاشارة وتزيينها للعبارة فى التشهد عند النطق بكلمة التوحيد من الكتاب والسنة أما أدلتها من الكتاب اجمالا فقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله» (سـورة الحشر آية ٧) وقال تعالى : « من يطع الرسـول فقد أطاع الله » (سورة النساء الآية ٨٠) ومن السنة أحاديث كثيرة

رويت بألفاظ متفقة غالبا وفيها اختلاف في الألفاظ قليل • نذكر منها : ما روى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : كان رسول الله اذا قعد فى التشهد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى ، ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى ، وعقد ثلاثة وخمسين وأشار بالسبابة »(١) •

وفسر العقد المذكور : بأن يعقد الخنصر والبنصر والوسطي ويرسل الابهام الى أصل المسبحة • وفى رواية : كان اذا جلس فى الصلاة وضع يديه على ركبتيه ورفع أصبعه اليمنى التى تلى الابهام يدعو بها — أى يشير بها — ويده اليسرى على ركبته باسطها عليها » ويرى جمهور الفقهاء أنه يرفع أصبعه السبابة ولا يحركها فقد روى عن عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بأصبعه اذا دعا ولا يحركها رواه أبو داود والنسائى ، وزاد أبو داود : ولا يجاوز بصره اشارته • فهذا يدل على أنه لا يحرك الأصبع اذا رفعها للاشارة الا مرة واحدة • يرفعها عند قول « لا اله » ويضعها عند قول : « الا الله » لمناسبة الرفع للنفى ، وللاءمة الوضع للاثبات حتى يطابق القول الفعل فى التوحيد والتفريد

الحكمة من الاشارة فى الصلاة :

اختلف العلماء فى معنى الاشارة فمن ذهب الى عدم التحريك قال : ان الاشارة اشارة الى التوحيد مطابقة للقول تأكيدا له ، وكان ابن الزبير يقول : لم يكن رسول الله صلى الله

---

(١) مشكاة المصابيح ١/٢٨٨ — ٢٨٩ •

عليه وسلم يحرك مسبحته الا عند اشارته وكان ينوى بها التوحيد والاخلاص .

ومن ذهب الى التحريك قال : هو قمع وطرد للشيطان ، واشتغال عن السهو كما أشار الى ذلك الباجى فى المنتقى ، وعارضه ابن العربى المالكى فى : « عارضة الأحوذى » . وقد علل الدسوقى فى حاشيته على الشرح الكبير (١/٢٥١) بأن تحريكها يذكره أحوال الصلاة ، لأن عروقها متصلة بنياط القلب ، فاذا تحركت انزعج القلب فيتنبه لذلك ، ومن الأدب فى الصلاة والتزام السكينة والوقار المؤديان الى الخشوع فى الصلاة هو أن المؤمن فى حال جلوسه للتشهد فى الصلاة ينبغى عليه أن لا يجاوز بصره اشارته . وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « ان جزءا من سبعين جزءا من النبوة تأخير السحور ، وتبكير الافطار ، واشارة الرجل بأصبعه فى الصلاة .

وذكر الامام مالك - رحمه الله - فى موطئه : أخبرنا مسلم بن أبى مريم عن على بن عبدالرحمن المعاوى أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصى فى الصلاة ، فلما انصرفت نهانى وقال : اصنع كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصنع ، فقلت : وكيف كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصنع ؟ قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى ، وقبض أصابعه كلها ، وأشار بأصبعه التى تلى الابهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى . وفى رواية : « حلق الابهام

والوسطى ، وأشار بالسبابة »(١) وعن أبى هريرة قال : ان رجلا كان يدعو (أى يشير) بأصبعيه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أحد أحد » كرر للتأكيد فى التوحيد أى أشر بأصبع واحدة ، لأن الذى تدعوه واحد سبحانه . وأصله : وحد أمر مخاطب من التوحيد فقلبت الواو همزة .

(١) انظر : تزيين العبارة لتحسين الاشارة للعلامة ملا على القارى ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

القسم الثاني

التصوير الحركي بالأعضاء الجسمية

المشـــاهد الحـــركية

المقصــود بالمشاهد الحركيــة الفعل الحركى الذى يؤديه الانســان بواســطة أعضائه الجســمية للتعبير عما بداخله من المشاعر الانسانية والوجدانات النفسية تجاه الأحداث المتباينة التى تثير شعوره نحو الرضا بشىء ما أو الفرح به ، أو التعجب منه أو تقبــله أو انكاره أو النفــور منــه أو الاســتئناس به أو الخوف منه أو الاقبال عليه أو الاعراض عنه أو التهــكم به والسخرية منه ، أو اظهار حركة تبدو فى الظاهر لتســتر بها ما فى الباطن كما هو الحال فى شأن المنافقين • أو تصوير حدث معين أو صفة معنوية بصورة حركية تظهر فى الأعضاء الجسمية كل هذا يحكيه القرآن وينقله لنا لكى نتصوره لندرك مداه وبيان مدى تأثيره فى جلاء الصورة التى غابت عنا ولم نشاهدها فيكون الشىء المحكى لنا عن طريق المشهد الحركى حاضرا معنا وكأننا نشاهده • وقد تكون الصورة الحركية غير محكية ، وانما قصد النظم القرآنى الى ابرازها بواسطة الحركة الجسمية لما فى ذلك من تمكينها فى النفس وتثبيتها فى الذهن « فليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين • وقد يقتصر النظم القرآنى على ابراز المشهد الحركى فقط للدلالة على معنى بلاغى وقد تقترن الحركة الفعلية للأعضــاء الجسمية بالعبارة اللفظية للقصد الى جــلاء الصورة وتقريرها وتثبيتها فى الذهن حســبما يقتضيه الحال ويتطلبه المقام •

وقبل أن نتناول ما جاء فى القرآن الكريم من هذه المشاهد الحركية نود أن نقف على ما ذكره ابن جنى فى هذا الشأن ومن سار على نهجه كالطوفى البغدادى فى كتابه الاكسير فى علم التفسير ، فان ما ذكره ابن جنى كان هاديا ومرشدا لى لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه ٠

فقد تحدث ابن جنى عن : حكاية الاشارة والحركة ونقل مشاهدها وأحوالها ممن شاهدها الى ما لم يشاهدها لما فى ذلك من معان وأسرار بلاغية فى الخصائص فقال : « ان للعرب فى قصدهم للدلالة على معانيهم شيئين أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا الا أنه مع أدنى تأمل فى حكم الحاضر معنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر الى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله وتقبله أو انكاره ، والأنس به أو الاستيحاش منه ، والرضا به أو التعجب منه ، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما فى النفوس ٠ ألا ترى الى قوله :

تقول — وصكت وجهها بيمينها — أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

فلو قال حاكيا عنها : أبعلى هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة لكنه لما حكى الحال فقال : « وصكت وجهها » علم بذلك قوة انكارها وتعاظم الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولعظم الحال فى نفس تلك المرأة أبين ٠ وقد قيل « ليس المخبر كالمعاين » ولو لم ينقل الينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله : «وصكت وجهها» لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها، وليست كل حكاية تروى لنا ولا كل خبر ينقل الينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة —

كانت به – نعم ولو نقلت الينا لم نفد بسماعها ما كنا نجده لو حضرناها(١) ٠

فقد علمنا قوة الانكار والتعجب من حكاية مشهد الحركة وهى صك الوجه التى نقلها الينا الشاعر ، وهو انكار مصحوب بالألم لأنها – أى المرأة التى صكت وجهها – رأت زوجها الذى لم يدخل بها فى حالة مهينة فى نظرها وهى مزاولة الطحن بالرحى لضيف نزلوا به ، فهذا ما غاب عنا ، ولكنه فى حكم الحاضر لحكاية الحال ونقل مشاهد الحركة فيها ٠ فالانكار يتفاوت قوة وضعفا ، والاستفهام فى البيت يدلنا على هذا الانكار ، ولكنه لا يبين درجته وشدته وعظمه ، والذى أبان عن ذلك هو حكاية حال المرأة ونقل هذا المشهد لمن لم يره ٠

والاشارة اليه بأسم الاشارة للقريب للدلالة على دنو منزلته وتحقيره والتصاقه بالتراب يطحن بالرحى شأن الخدم والعبيد ٠

فقائل هذا البيت هو زوجها الهذلول بن كعب العنبرى وقد تضمن حكاية قولها وفعلها وهى مذهولة متعجبة من تقاعسه أمام الرحى ؟ أبعلى هذا الذى أرآه متقاعسا أمام الرحى ؟ ! فيقول لها : لا تتعجبى وتبينى أفعالى الحميدة من البأس والنجدة والحمية فى غمرة القتال وقد التفت الفوارس من حولى فأنا الذى أرد القرن فيخر صريعا لوجهه مطعونا بسنان ذى حدين فقال ردا على ما قالته وما فعلته :

فقلت لها : لا تتعجبى وتبينى
فعالى اذا التفت على الفوارس

ألست أرد القرن يركب ردعه
وفيه سنان ذو غرارين نائس

(١) الخصائص لابن جنى ١/٢٤٥ ، ٢٤٦ ٠

لعمرو أبيك الخير : انى لخـادم
لضيفى وانى ان ركبت لفارس(١)

فالاســتفهام هنـا انكارى تعجبى وأنه منصب على بعلها ولذلك قدمته لهذا الغرض ، ولهـذا فانه قد رد عليهـا بأقوى ما يكون الرد فطلب منها ألا تتعجل فى الحكم عليه بدنو المنزلة، فان منزلته مرتفعة بفعـاله الحميـدة فى مقارعة الأبطال يوم النــزال(٢) .

ثم أقسم بأبيها رجل الخير أنه لم يفعل ذلك — من الطحن بالرحى — الا تواضعا لخدمة أضيافه ، وتلك محمدة لا مذمة وفضيلة لا نقيصة ، وأكد جواب القسم فى الأخبار التى تلته بأن واللام واســمية الجملة فى قوله : « انى لخادم لضــيفى » و « انى ان ركبت لفارس » وهـذا التأكيد قد وقع موقعــه ، وأصاب محزه لمواجهة شدة انكارها وتعجبها من فعله وهو ادارة الرحى لطحن الحبوب لأنه فى نظرها فى حالة مهينة تحط من قدره وتغض من شأنه فواجه هذا الانكار منها بالتأكيد على ضد ما ظنته به من دنو منزلته ببيــان أن هـذا الفعل ما زاوله الا

---

(١) صكت : ضربت . المتقاعس : الذى دخل ظهره وخرج صدره — القرن المكافىء . الردع : الدفع ، ومعنى يركب ردعه أى يخر صريعـا لوجهه . ذو غرارين أى ذو حدين ، نائس : مضطرب .

(٢) انظر شرح ديوان الحماسة لأبى تمام ٢/١١٦ ، ١١٧ ، واسم الاشارة فى القرآن الكريم . مواقعه وأسراره البـلاغية رسـالة دكتوراه — للدكتور / محمد عبد المنعم على متولى مخطوطة بكلية اللغة العربية بالزقازيق

تواضعا لخدمة أضـيافه ، وهـذا يرفع من قدره ويعلى منزلته ما دام هذا الفعل وسيلة لاطعام الضيفان فهم كانوا يتمدحون بالكـرم ٠

وذكر ابن جنى شاهدا يؤدى الى الالباس فى فهم المراد منه ولا يزيل هـذا اللبس الا ذكر جملة الحـال وحكايتها كما فى قول الشـاعر :

قلنا لها قفى لنا قالت قاف

فقولها قاف يشير الى معنى تقصده ، ولا يعلم قصدها هنا هل أرادت بقولهـا « قاف » رد لقوله وتعجب منـه فأعادته على جهة التعجب أى « قفى لنا » !! أو أرادت الاجابة لقوله قفى لنا فيكون المراد من قولها « قاف » وقفت أو توقفت ٠ ولكن الشاعر لو نقل الينا شيئا آخر من جملة الحال فقال مع قوله : « قالت قاف » (وأمسكت بزمام بعـيرها) أو (عاجته علينـا) لكان أبين لمـا كانوا عليه وأدل على المراد(١) ٠

وقد ذكر ابن جنى هذا الشطر من البيت فى مكان آخر من كتابه مستشهدا به على أن الايجاز المحمود لابد فيه من تركيب الجملة ليعطيك تمامه وفائدته فان نقصت عن التركيب المطلوب لها لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب بل هناك تعمية والباس

ويرى ابن جنى أن الحمالين والحماميين والساسة والوقادين ومن يعتد بهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصـله

---

(١) الخصائص لابن جنى ١/٣٠ ، ٢٤٦ ٠

أبو عمـــرو من شـــعر الفرزدق اذا أخبـــر به عنه ولم يحضره ينشده ، أو لا تعلم أن الانسان اذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه وينعم تصويره له فى نفسه استعطفه ليقبل عليه فيقول له : يا فلان أين أنت أرنى وجهك أقبل على أحدثك ، أما أنت حاضر يا هناه فاذا أقبل عليه وأصغى اليه اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه أو نحو ذلك فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقـابلة العين مجزئا عنه لما تكلف القائل ، ولا كلف صاحبه الاقبال عليه والاصـــغاء اليه ولذلك قيل :

العين تبدى الذى فى نفس صـــاحبها
مـــن العـــداوة أو ود اذا كانـــا

أفلا ترى الى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا عـــلى ما فى النفوس ، وعلى ذلك قالوا «رب اشارة أبلغ من عبارة» .

ثم يقول ابن جنى : فليت شـــعرى اذا شاهد أبو عمـــرو وابن أبى اسحاق ويونس ، وعيسى بن عمر والخليل ، وسيبويه وأبو الحسن ، وأبو زيد ، وخلف الاحمر والاصمعى ومن فى الطبقة والوقت من علماء البلدين . وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشـــاهدة وذلك الحضـــور ما لا تـــؤديه الحـــكايات ولا تضـــبطه الروايات فتضطر الى قصـــود العرب وغوامض ما فى أنفســـها ، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه اشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه ، غير متهم الرأى والنحيزة والعقل فهذا حـــديث ما غاب عنا فلم ينقل الينـــا ، وكأنه حاضر معنا مناج لنا(١) .

---

(١) الخصائص ٢٤٨/١ .

ومن المعلوم فى باب الحذف أن المحذوف لا بد له من دليل يدل السامع أو القارئ عليه ، وفقد الدليل أو القرينة على المحذوف يؤدى الى الغموض والتعمية ٠ والبلاغة بمنأى عنهما فمن مقاصدها الوضوح والبيان ، ولذلك اشترط البلاغيون لصحة الحذف وجود الدليل سواء أكان دليلا حاليا أو مقاليا ، وقد تعرض ابن جنى للدليل الحالى أى أن الحال المشاهدة دليل على المحذوف فيقول : قد يحذف الفعل لدلالة الحال المشاهدة عليه اذ أن هذه الحال المشاهدة قائمة مقام الفعل نحو ذلك قولك : اذا رأيت قادما (خير مقدم) أى قدمت خير مقدم فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب »(١) ، فالمحذوف الذى دلت الحال المشاهدة عليه فى حكم الملفوظ به ٠ فقدمت فى حكم الملفوظ به وان لم يوجد ، لأن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به ، وقولك للقادم من حجه مبرور مأجور أى أنت مبرور مأجور بحذف المبتدأ أو مبرورا مأجورا بحذف الفعل أى قدمت مبرورا مأجورا ٠

ومن دلالة الحال المشاهدة المعبر عنها بالاشارة أو الحركة ماذكره ابنجني عند حذف الصفة فان ما يرى منوجوه القائلين وطريقة نطقهم للكلام بالنبر والتنغيم والتفخيم والتعظيم وغير ذلك ما يقوم مقام الدليل على المحذوف يقول ابن جنى : « وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها ٠٠٠ وذلك أنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : « طويل » من قولهم : سير عليه

---

(١) الخصائص ٢/٣٧١ ٠

ليل وهم يريدون : ليل طويل ، وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته • وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد فى قوة اللفظ بـ « الله » هذه الكلمة ، وتتمكن فى تمطيط اللام واطالة الصوت بها أى رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك • وكذلك تقول : سألناه فوجدناه انسانا ! وتمكن الصوت بانسان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك : انسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك ، وكذلك ان ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان انسانا ! وتزوى وجهك وتقطبه ، فيغنى ذلك عن قولك : انسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك (١) واذا كان ابن جنى قد شاهد وجوه القوم عند نطق الألفاظ وخبر عاداتهم فى ذلك فاستخلص منها دلالة الحال على حذف الصفة فنحن كذلك فى وقتنا الحاضر نشاهد من حديث الناس وطريقة نطقهم مما يعبر عما فى نفوسهم بالتنغيم والتفخيم وما يظهر على وجوههم واشاراتهم وحركاتهم ، فأنت تقول : ذهبت الى فلان اليوم فوجدته انسانا ! وتطيل الصوت فى كلمة انسان ، ولا تكتفى بذلك بل يظهر على قسمات وجهك واشاراتك ماتريد أن تعبر عنه ، وهو أنه يحمل كل معانى الانسانية من نبل وكرم أخلاق وكرم ضيافة وشهامة ورجولة •• الخ • بل انك ـ تأكيدا لما تريد أن تعبر عنه ـ تقول : وجدته انسانا بمعنى الكلمة •

وقد تأثر الطوفى البغدادى صاحب كتاب « الاكسير فى علم التفسير » بابن جنى حيث قال : « أما حذف الصفة ،

(١) الخصائص ٢/٣٧٠ ، ٣٧١ •

فانما يحسن اذا ساوق الكلام ما يدل عليها من تعظيم أو تفخيم ونحوه فيجوز «كان زيد والله رجلا» و «اعتبرت عمرا فوجدته انسانا أى رجلا فاضلا ، وانسانا كاملا لدلالة الحال على تعظيمك له ، ولزوم تحصيل الحاصل من تقدير عدم ارادة الصفة ، ولهذا لو قلت : رأيت رجلا أو كان زيد رجلا ولم يقترن به شيء من ذلك لم يفد »(١) ٠

ـ وسنتناول ـ بمشيئة الله تعالى ـ ما جاء من هذه المشاهد والصور الحركية فى الأعضاء الجسمية بالدراسة التطبيقية فى القرآن الكريم وبيان ما تدل عليه الصورة الحركية المشاهدة من أسرار بلاغية ٠

حركة اليد وما يتصل بها :

القرآن الكريم صور اليد فى صور حركية فى مواضع متعددة فصور حركة الأصابع وادخالها فى الآذان للدلالة على شدة الرعب من صوت الرعد المفزع ، فى قوله تعالى : «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ٠ وصور المولى عز وجل حركة عض الأنامل بسبب الغيظ الذى لحق بالمنافقين ـ وحركة عض الظالم على يديه وحركة السقوط فى اليد ـ وحركة بسط اليد وقبضها ـ وحركة اليد واشارتها الى الفم ، وحركة شد اليد بالغل الى العنق ـ وحركة بسط الكف ٠٠٠ الخ ٠

أما حركة وضع الأصابع فى الآذان ففى قوله تعالى «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » فالتعبير عن

---

(١) الاكسير فى علم التفسير ص ١٨٨ ٠

حركة وضع أصابعهم فى آذانهم يؤذن بشدة صوت الرعد المصحوب بالصواعق المهلكة ، لأنهم يدخلون الأصابع كلها .

ومحاولتهم ادخال الأصابع كلها فى الآذان دليل على شدة الرعب والفزع الذى أحاط بهم من كل جانب،وهم لايتمكنون من ذلك وانما يمكنهم ادخال بعض الأصابع وهى الأنامل ففى التعبير مبالغة بذكر الكل وهى الأصابع وارادة الجزء وهى الأنامل على طريق المجاز المرسل لعلاقة الكلية وقرينته الاستحالة أى استحالة ادخال الأصبع كلها فى الأذن كما قرر البلاغيون ، فقد علمنا مدى شدة صوت الرعد بحركة جعل الأصابع فى الأذن .

فالمقام يستدعى هذه المبالغة عن طريق المجاز المرسل ، لانهم فى موقف رعب وفزع شديدين خوفا من الموت ، وذلك ان تتصور هذا الموقف ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض . فالسحاب فيه ظلمة تحجب نور النجوم السواطع واجتمع مع ظلمة السحاب ظلمة الليل ، وظلمة المطر عليهم ، وهذا هو السر فى جمع الظلمة على ظلمات لحصول أنواع مختلفة منها كما بينا ، أما الرعد والبرق فانه نوع واحد حصل فى السحاب . ولذلك أفرد ولم يجمع .

وجاءت هذه الألفاظ الثلاثة منكرة — ظلمات ورعد وبرق للدلالة على قوتها وشدتها ، كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ورعد قاصف ، وبرق خاطف فالمراد أنواع منها وقوله تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » جملة مستأنفة فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال فكأن قائلا قال : « فكيف

حـالهم مع مثـل ذلك الرعـد فقيـل يجعلون أصـابعهم فى آذانهم »(١) .

حركة عض الأنامل :

فى قوله تعالى : « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظـكم ان الله عليم بذات الصـدور » والعض : شـد الشىء بالأسنان ، وهو من فعـل المغضب الذى فاته ما لا يقـدر عليه ، أو نزل به ما لا يقـدر على تغييره ، وهذا الفعل نتيجة لاضطراب بواطنهم من الانفعال فتصدر عنهم — أى المنافقين — حركات تناسب ذلك الانفعـال وقد تكون مقصورة عليهم يشفون بها بعض انفعالاتهم ، وهذا نراه فى حياتنا اليومية نرى الطفل اذا غضـب يضرب الأرض بيديه ورجليه ، وقد يضرب الرجـل نفسه من شـدة الغضب ، فالذى يشـاهد هذه الحـركات وينقلهـا الينـا لنستحضرها فى أذهاننا انما يقصد ما تشير اليه من المعانى الثانية أو معنى المعنى ، والله سـبحانه وتعالى هـو المطلع على بواطن هـؤلاء المنافقين الذين يظهرون للمؤمنين المودة وهم فى الباطن خلاف ذلك ، ويعلم سبحانه وتعـالى ماذا يفعلون اذا خلوا لأنفسـهم بعيدا عن أعين المؤمنين حيث يستحوذ عليهم الشيطان فيجعلهم يبيتون للمؤمنين ما لا يرضونه من القول والفعل ، فنقـل هذا الفعل الحركى أمام أعيننـا لنتصوره ونعرف ماذا يقصـد منه وهو الكناية عن شدة الغيظ والتحسر ، ومنه قول أبى طالب :

« يعضون غيظا خلفنا بالأنامل » .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب للرازى ٤٦٢/١ .

وقال حارث بن ظالم المرى :

فأقبـــل أقوام لئـــام أذلـــة
يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

وقال آخـــر :

اذا رأونى أطـــال الله غيظهـــم
عضوا من الغيظ أطـــراف الأباهيم

والغيظ : غضب شديد قد يلازمه ارادة الانتقام • ولما لم يمكنهم الانتقام من المؤمنين لأن الله تعالى يطلع المؤمنين عـلى أفعالهم ويفضح سرائرهم قال الله تعالى مخاطبا رسوله « قـل موتوا بغيظكم » أى قـل لهم يا محمـــد ولأمثـــالهم ممن يتصف بالغيظ والحنق على المسلمين « موتوا بغيظكم » فهو خطاب عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهو دعاء عليهم بالموت بالغيظ ، يلزم منه ملازمة الغيظ لهم طول حيـــاتهم ان طالت أو قصرت ، أى أن الدعاء عليهم بالموت كناية عن لـــزوم الغيظ لهم ، وهذا المعنى الكنائى يلزم منه كنـــاية(١) أخـــرى وهى دوام ســـبب غيظهم وهو حسن حـــال المسلمين وانتظـــام أمرهم وازدياد خـــيرهم(٢) وبقـــول الزمخشرى : ويجـــوز أن لا يكون ثم قول ، وأن يـــكون قوله : « قل موتوا بغيظكم أمـــرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجـــاء

---

(١) واليك مزيدا لايضاح الكناية عن الكناية هو أن الموت بالغيظ كناية عن ملزومه وهو ازدياد غيظهم الى درجة الهلاك ، وعبر بازدياد غيظهم الى درجة الهلاك عن ملزومه وهو اعزاز الاسلام وعلوه وارتفاع شأنه •

(٢) التحرير والتنوير ٤/٦٧ بتصرف •

والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم به ، كأنه قيل : حدث نفسك بذلك(١) وعلى هذا لا يكون أمرا للرسول بتبليغ قوله : موتوا بغيظكم اليهم أو الى كل من يتصف بالغيظ على المسلمين ، وانما المعنى طيب نفسك وأبشروا علم انهم يموتون بغيظهم ٠

حركة عض اليدين :

فى قوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا» ٠

هنا يعرض المولى عز وجل مشهدا من مشاهد يوم القيامة يصور فيه ندم الظالمين الضالين ، فالموقف أشد هولا والحسرة أشد ألما والندم بلغ منتهاه ، ولذلك صورت حركته بصورة أقوى وأشد من سابقه وهو عض الأنامل غيظا وحسرة ففى هذا السياق لا يعض أنامله فقط ولا يعض يدا واحدة لأنها لا تشفى ما به من شدة الحسرة والندامة وانما هو يعض على يديه معا يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من هول الموقف اذ النفس هنا والهة مكروبة يحيط بها العذاب من كل جانب فتتذكر ما حدث لها فى الدنيا فتندم أشد الندم — ولات ساعة مندم ، فيجسم حالته النفسية التى هى فى قمة انفعالها وثورتها وندمها على ما فات بعض اليدين لبيان مدى الحسرة والندم ، وشدة التفجع بعد فوات الأوان ٠٠ وانظر الى قوله تعالى : « ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » تجد مدى

---

(١) الكشاف ٤٥٩/١ ٠

تعلق النفس بما فات وهيهات أن يستدرك بل من المحال وذلك بأسلوب التمنى المصدر بالنداء وليس مرادا به النداء ، وانما المراد به التنبيه على مدى الخسران الذى لحق به عندما حاد عن طريق الرسول ، وهنا نجد اسلوب الترقى فى الندم من حالة الى حالة أخرى أشد منها اذ يكون أشد حدة من سابقه فيقول : « يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » لأنه هنا ينادى فيه ويلته يعنى هلاكه يقول لها تعالى فهذا أوانك ، وفى قوله : فلانا بدون تحديد شخص معين كناية عن صاحب السوء أيا كان فيشمل كل صاحب سوء صده عن سبيل الرسول ، وأضله عن ذكر الله تعالى .

حركة السقوط فى اليد :

فى قوله تعالى : « ولما سقط فى أيديهم » هذا التعبير كناية عن شدة الحسرة والندم أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، وبيان ذلك أن الندم حدث يحصل فى القلب ، وأثره يظهر فى اليد ، لأن النادم يعض يده كما مر فى الآية السابقة أو يضرب احدى يديه على الأخرى كقوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها » .

فتقليب الكف عبارة عن الندم فالنادم يقلب كفيه ظهرا لبطن ، ولما كان أثر الندم يحصل فى اليد كما بينا أضيف سقوط الندم الى اليد ، لأن الذى يظهر للعيون من فعل النادم هو تقليب الكف وعض الأنامل واليد كما أن السرور معنى يحصل فى القلب يستشعره الانسان ، ويظهر على المرء من انفراج أسارير وجهه ، ومن حالة الاهتزاز والحركة والتبسم أو الضحك وما يجرى مجراه . وعبر بالسقوط فى

اليد لأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها ، وقيل : من عادة النادم ان يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدا عليها ، ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه ، فكأن اليد مسقوطا فيها (١) .

وخصت اليد بالذكر ، لأن مباشرة الذنوب بها ، فاللائمة ترجع عليها ،لأنها هى الجارحة العظمى ، فيسند اليها ما لم تباشر كقوله : « ذلك بما قدمت يداك » (٢) ، وكثير من الذنوب لم تقدمه اليد .

وقرىء « سقط » بالبناء للفاعل أى وقع العض فيها على معنى سقط الندم فى أيديهم والمراد فى قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل فى يده مكروه ، وان كان محالا أن يكون فى اليد تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى بالعين »(٣) وخصت اليد بالذكر لأن مباشرة الذنوب بها ، فاللائمة ترجع عليها ، لأنها هى الجارحة العظمى فيسند اليها ما لم تباشر كقوله تعالى : « ذلك بما قدمت يداك » وكثير من الذنوب لم تقدمه اليد ، واليد تستعار للقوة والنصرة اذ بها يضرب بالسيف والرمح كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « وهم يد على من سواهم » أى قوة متماسكة متآلفة ، وهى آلة القدرة قال تعالى : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » أى أنه عليه السلام ذو قوة ولكنه كان أوابا

---

(١) انظر الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى ٥/٤٦٣ .

(٢) الآية ١٠ من سورة الحج .

(٣) الكشاف ٢/١١٨ .

أى رجاعا الى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار »(١) وهذا التركيب لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب .

وقد يكون هذا التركيب كناية عن فقد الحيلة فى دفع أمر هو بصدده أى ولما رأى بنو اسرائيل أنهم صاروا - بهذه النكسة - الى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم .. وانتهى(٢) فعلوا هذا تعبيرا عن فقد الحيلة ، والندم على فوات أمر لايمكنهم استدراكه . ولذلك تأتى الجملة التالية مشخصة لضلالهم كأنهم أبصروا بعيونهم فى قوله تعالى : « ورأوا أنهم قد ضلوا » بمعنى أنهم تيقنوا من ضلالهم لأنه صار فى صورة الشىء المشاهد المحسوس ، وهنا ينسجم النظم وتتناسق التراكيب فى تصوير الأشياء المعنوية فى صورة حسية مشاهدة .

بسط اليد وقبضها :

فى قوله تعالى : « اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم » المائدة : ١١ .

نزلت هذه الآية فى قوم هموا بأن يغدروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين يوم الحديبية بأن يأخذوهم على غرة فأوقعهم الله أسارى فى أيدى المسلمين ، وحركة بسط اليد فى هذا السياق كناية عن البطش والاعتداء أى هموا بأن يبطشوا بكم ويعتدوا عليكم فحماكم الله منهم ، ويقول الأستاذ سيد قطب : « ان صورة وحركة بسط الأيدى وكفها أكثر حيوية من ذلك التعبير المعنوى الآخر ، والتعبير القرآنى يتبع طريقة

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/١٣٧٣ .
(٢) فى ظلال القرآن ٣/١٣٧٤ .

الصورة والحركة لأن هـذه الطريقة تطلق الشـحنة الكاملة فى التعبير كما لو كان هـذا التعبير يطلق للمرة الأولى مصـاحبا للواقعة الحسية التى يعبر عنها مبرزا لها فى صـورتها الحيـة المتحركة ، وتلك طريقـة القرآن(١) وقد يجتمع بسط اليد واللسان فى ايقاع الأذى والتنكيل بالمسلمين كما فى قوله تعالى: « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعـداء ويبسـطوا اليـكم أيديهم وألسـنتهم بالسوء وودوا لو تكفـرون » (٢) ونلحظ فى هذا الأسلوب الترقى والتدرج من حالة الى حالة أخرى أشد منها، حيث عطف تمنيهم الارتداد الى الكفر على بسط اليد واللسان بالأذى والسوء ، فالذى يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز كنز الايمان ويرتد الى الكفر هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسـان وبهذا يتـدرج القرآن فى تهييـج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل الى قمتـه بقوله لهم عنهـم : « وودوا لو تكفرون »(٣) ونلاحظ أنه أتى بفعل الودادة ماضيا دلالة على تحقق ذلك منهم وأنه شىء مركوز فى نفوسهم منذ بداية الدعوة ٠

ويصور الله عز وجل موقف الظالمين وقت معالجة سـكرات الموت ، والملائكة أمامهم مسـلطون عليهم يعجلون فى اخـراج أرواحهم من أبدانهم بشدة فيبسطون اليهم أيديهم قائلين هاتوا أرواحكم أخرجوها الينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف فى السياق والالحـاح والتشـديد فى الازهاق من غير تنقيس

---

(١) فى ظلال القرآن ٢/٨٥٥ ٠

(٢) الممتحنة آية ٢ ٠

(٣) فى ظـلال القرآن ٦/٣٥٤١ ٠

وامهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده الى من عليه الحق ، ويعنف عليه فى المطالبة ولا يمهله ، ويقول له أخرج الى ما لى عليك الساعة ولا أريم مكانى حتى أنزعه من احداقك(١) . فى قوله تعالى : « ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم(٢) .

وما قاله الزمخشرى يجرى على طريقة التمشيل أى مثلت حال الملائكة فى انتزاع أرواح الظالمين فى عنف وشدة بحال فعل الغريم الذى يعنف من عليه الحق له فيطالبه بحقه ولا يمهله ولا يكف يده عن البسط حتى يؤدى ما عليه من دين ، ولذلك آثر التعبير القرآنى اسم الفاعل على الفعل لما فى ذلك من الثبوت والاستمرار . وقد يكون هذا التعبير كناية عن العذاب الذى يلحقهم عند قبض أرواحهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم »(٣) ومعنى أخرجوا أنفسكم على هذا التفسير : خلصوها من العذاب ان أمكنكم فالأمر هنا للتعجيز والتوبيخ ، ويكون التعبير باسم الفاعل هنا لافادة ثبوت العذاب ودوامه، وأنه لا ينفك عنهم عند النزع وبعده فى البرزخ ويوم القيامة ، ونظيره فى الثبوت والاستمرار قوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » أى أن ذراعيه على هذه الهيئة من البسط مدة مكث أهل الكهف لا يزاول شيئا غيرها فهو ثابت على هذه الهيئة الجامدة .

---

(١) الكشاف ٢/٣٦ .
(٢) الأنعام : ٩٣ .
(٣) سورة الأنفال : ٥٠ .

أما حركة بسط الكف فقد تعرض لها المولى عز وجل فى هيئة ممثلة كما فى قوله تعالى : « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » ، وهذه الآية تصور المشركين الذين يجأرون بالدعاء الى من لا ينفعهم ولا يضرهم الا باذن الله ، وهى صورة حسية مشاهدة فالذين يدعون من دون الله الأصنام لا تستجيب لهم بشيء الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفه ولا بعطشه وحاجته اليه، ولا يقدر أن يجيب دعاؤه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه »(١) وهذه الصورة المحسوسة المتحركة تؤكد الكلام السابق، وهو عدم استجابة هذه الأصنام اليهم بشيء، لأنها جاءت على صورة الاستثناء اذ يتوهم السامع قبل تمام الجملة المستثناة أن هناك نوعا من الاستجابة حتى اذا ما اكتملت الجملة وتدبر معناها عرف مدى خيبة الأمل وعدم الاستجابة بشيء ما فيتأكد هذا المعنى فى ذهن السامع أو المخاطب لأنه كرر مرتين الأولى فى صورة عقلية غير ممثلة فى قوله تعالى : « لا يستجيبون لهم بشيء والثانية فى صورة حسية مشاهدة ممثلة ، ولا شك أن هذا التأكيد بالتكرار والتمثيل يقتضيه المقام ، لأن الكفار كانوا يعتقدون جدواها سواء فى ايصال النفع اليهم مباشرة أم فى كونها تقربهم الى الله كما قال تعالى : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ويذكر الزمخشرى وجها آخر للتمثيل فيقول : « وقيل : شبهوا فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يعرف

---

(١) الكشاف ٢/٣٥٤ .

المـاء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئا ، ولم يبلغ طلبتـه من شربه(١) وهذا الوجه له نظـير فى كلام العرب ، فيضرب قبض المـاء باليد مثلا لمن يسـعى فى أمر ويؤمل فى حصوله ولكنه لا يدركه كما قال الشاعر فى بيـان مقدار خيبة أمله فى وصل ليلى :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على المـاء خانته فروج الأصابع

وبسط اليد يستعمل فى القرآن للدلالة على الجود والسعة عن طريق الكناية لأنه يلزم من بسط اليد مدها بالانفاق كما فى قوله تعالى : « بل يداه مبسوطتان » وقد جاء التعبير باسم المفعول للدلالة على ثبوت البسط واسـتمراره الذى يلزم منـه دوام الانفاق ، ولم يكتف التعبير ببسط يد واحدة ، وانما يداه مبسوطتان • أما اذا أضـيف لفظ العموم الى بسط اليد فانه يكون كناية عن الاسراف والتبذير وهو مذموم لأنه هنا أطلق يده فى كل ماله فضيعه قال تعالى : « ولا تبسطها كل البسط» واذا كان البسط المقيد بلفظ العموم منهيا عنه فان غل اليد الى العنق منهى عنه أيضا وهو كناية عن البخل أو أنه مجاز عنه أى استعارة تمثيلية وهى فى غاية الدقة ، لأن البخيل يمنعه حبه للمال من الانفاق كما أن اليد المغلولة الى العنق يمنعها الغل من التصرف فى المـال • ويقول الأستاذ سيد قطب : « والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير فيرسم البخل يدا مغلولة الى العنق ، ويرسـم الاسراف يدا مبسـوطة كل البسط لا تمسك شيئا

(١) الكشاف ٣٥٤/٢ •

والمطلوب انما هو الاعتـدال فى الانفاق والتوسط فيه وقبض الأيدى كناية عن البخل والشح كما فى قوله تعالى : « ويقبضون أيديهم » فى بيان صفات المنافقين ، لأنه يلزم من قبض أيديهم عدم الانفاق ، ويلزم منه البخل والشح ، وهـذا المعنى يقابل ما ذكره الله بعد ذلك من صـفات المؤمنين وهى ايتـاء الزكاة ، لأن اتيان الزكاة يستلزم الانفاق والجود ، وهما يقابلان البخل والشـح ٠

ونسيانهم لله يتضمن أيضا كناية عن أنهم لا يفكرون قط فى الاتجاه الى أى خير ٠

ويقابل بسط اليد كونها مغلولة الى العنق ٠

حركة اليد واشارتها الى الفم :

فى قوله تعالى : « ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب »(١) ٠

اختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « فردوا أيديهم فى أفواههم » ومرجع اختلافهم الى مدلول تلك الحركة الجسمية والى مرجع الضمائر فى الآية : فضمير الرفع فى قوله : « فردوا » يرجع الى الكفـار ، أما ضـمير الجر بالاضـافة فى « أيديهم وأفواههم » فانهما قد يرجعان الى الكفار وقد يرجعان الى الرسل أو يرجـع الضـمير فى « أيديهم » الى الكفـار والضـمير فى « أفواههم » الى الرسل فهذه ثلاثة احتمالات :

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٩ ٠

الأول : أن يرجعا الى الكفار وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنهم عضوها غيظا من شدة نفرتهم من رؤية الرسل واستماع كلامهم ٠

وثانيها : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء تعجبوا منه غاية التعجب ، ووضعوا أيديهم على أفواههم ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك ٠

وثالثها : أنهم أشاروا بأيديهم الى جوابهم أى محل نطقهم بالجواب وهو قولهم : « انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب » فجوابنا هو ما نقوله بأفواهنا وما نطقت به ألسنتنا ، فلم يكتفوا بالجواب القولى بل قرروه بالاشارة الحسية بوضع أيديهم فى أفواههم أى فلا جواب عندهم غيره ٠ وهذا أقوى الوجوه عند الزمخشرى حيث علق عليه بقوله : وهذا وجه قوى ، وبيان القوة فى هذا الوجه هو أن المقام يقتضيه والسياق يدل عليه فهم لما حاولوا الانكار على الرسل كل الانكار جمعوا فى الانكار بين الفعل والقول ، ولذلك أتى بالفاء فى قوله : « فردوا » تنبيها على أنهم لم يمهلوا بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب ، وصدروا الجملة بان المؤكدة ، وعطف جملة : وقالوا ٠٠ على جملة : « فردوا أيديهم فى أفواههم » للدلالة على أن المراد بقوله : « فردوا « اشارتهم الى أفواههم لتتصل الاشارة بالقول ، والظرفية فى قوله : « فى أفواههم » على الوجه الأول على حقيقتها وفى الوجهين الثانى والثالث بمعنى « على » ٠

ورابعها : أنهم وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك الى

الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسـكتوا ، كما يفعـل أحدنا عندما يريد أن يسكت غيره فانه يضع يده على فمه مشيرا بأصبع السـبابة ٠

الاحتمال الثانى : أن يرجع الضمير فى أيديهم الى الكفار وفى أفواههم الى الأنبياء وفيه وجهان :

الأول : أنهم أشاروا بأيديهم على أفواه الرسل أن اسكتوا

الثانى : أنهم وضـعوا أيديهم على أفواه الرسـل منعا لهم من الـكلام ٠

الاحتمال الثالث : وهو أن يعود الضـميران الى الرسـل ويكون المراد بالأيدى منعهم من مواعظهم ونصائحهم : أى أن الأيدى بمعنى الأيادى لأن الأيادى غلبت فى النعم والأيدى فى الجوارح ويكون ردها الى أفواههم من قبيل التمثيل أى الاستعارة التمثيلية فيشبه حال الكفار فى ردهم مواعظ الرسل ونصائحهم برد الكلام الخارج من الفم الى الفم بمعنى أنه لا يتجاوز الحيز المحيط بالفم فلا يصل الى آذانهم ، وقد كانوا يفعلون ذلك فى مواجهة الأنبياء كما حكى القرآن عن فعلهم وحركتهم مع نوح عليه السلام فى قوله تعـالى : « وانى كلمـا دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا »(٢) فيكون فعلهم هذا تمثيلا لرد كلامهم فى أفواههم والقرآن يفسر بعضـه بعضـا ، والمراد بردهم اباؤها وعدم قبولهم لها ، وفى هذا الاحتمال وجه آخر وهو أن الكفار أخذوا

---

(١) سورة نوح آية : ٧ ٠

أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم ، وعلى هذا الوجه :

المراد باليد والفم حقيقتهما • أى الجارحتان ، وعلى الأول هما مجازان • وهذا الوجه فيه بعد وتكلف فلا يعقل أن يتطاول الكفار على الرسل بهذه الحركة المهينة ، وان كان يمكن تصور أن يضع الكفار أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم بذلك من الكلام ، وهذا الوجه وان كان بعيدا أيضا الا أنه أقل من سابقه بعدا •

وقال أبو عبيدة : هو ضرب مثل أى لم يؤمنوا،ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل اذا أمسك عن الجواب قد رد يده فى فيه، وقال الأخفش أيضا ، ونقل القرطبى عن القتبى رده على أبى عبيدة فقال : لم نسمع أحدا من العرب يقول : رد يده فى فيه اذا ترك ما أمر به ، وانما المعنى عضوا على الأيدى حنقا وغيظا لقول الشاعر :

تردون فى فيه غشى الحسو د حتى يعض على الأكفا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه(١)

والشيخ محمد الطاهر بن عاشور يقول : ان هذا التركيب من مبتكرات القرآن فلا أعهد سبق مثله فى كلام العرب ، ويرى أن هذا التركيب يحتمل عدة وجوه كما ذكر صاحب الكشاف واستخلص منها وجها رآه أولى بالقبول ، وهو أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم اخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم وذلك تمثيل لحالة

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٥/٣٥٧٥ •

الاستهزاء بالرسل ، وآثر النظم لفظ الرد للدلالة على تكرار هذا الفعل منهم أى أنهم يضعون أيديهم على أفواههم ثم يزيلونها ثم يعيدونها كماكانت مرة ثانية وهكذا فتلك الاعادة رد وحرف « فى » للظرفية المجازية المراد بها التمكن فهى بمعنى « على » كقوله تعالى : « أولئك فى ضلال مبين » وعطفه بفاء التعقيب مشير الى أنهم بادروا برد أيديهم فى أفواههم فور تلقيهم دعوة رسلهم وعلى هذا يكون رد الأيدى فى الأفواه تمثيلا لحال المتعجب المستهزىء فالكلام تمثيل للحالة المعتادة ، وليس المراد حقيقته(١) .

ويرى المرحوم سيد قطب فى دلالة حركة اليد فى الفم معنى لم يذكر فيما سبق وهو أن حركة اليد أمام الفم فيها دلالة على الجهر بالتكذيب والافحاش فى هذا الجهر باتيانهم بهذه الحركة الغليظة التى لا أدب فيها ولا ذوق امعانا منهم فى الجهر بالكفر كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد بتحريك كفه أمام فمه ، وهو يرفع صوته ذهابا وايابا فيتموج الصوت ويسمع(٢) ، وهذا الرأى فيه بعد أيضا لأن الحركة التى يفعلونها ليست فى الأفواه ولا على الأفواه ، وانما هى أمامها، وكلمة « فى » لا تدل على هذا المعنى لا حقيقة ولا مجازا ، هذا بالاضافة الى أن رفع الصوت بهذه الكيفية لا يفيد معنى جديدا فى الجهر بالكفر ، فرفعهم الصوت جهرا بالكفر من غير هذه الحركة يستوى مع جهرهم به مع اتيانهم بهذه الحركة .

والفخر الرازى ذكر الأوجه السبعة التى ذكرها الزمخشرى

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩٧ .
(٢) فى ظلال القرآن ٤/٢٠٩٠ .

ثم أضاف ثلاثة أوجه مجازية يقول : أما على القـول بأن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه :

الوجه الأول : نقله عن أبى مسلم الأصفهانى قال : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن اسماع الحجـة انعام عظيم ، والانعـام يسـمى يدا يقال لفلان عندى يد اذا أولاه معروفا ، وقد تذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى : «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد اللهفوق أيديهم »(١) فالبينات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد ، وأيضا العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أياد ، وجمـع اليد فى العدد القليـل هو الأيدى ، وفى العدد الكثير هو الأيادى فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدى ، واذا كانت النصائح والعهود انما تظهر من الفم فاذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت ، ونظـيره قوله تعـالى « اذ تلقـونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم »(٢) فلما كان القبول تلقيا بالأفـواه عن الأفواه كان الدافع ردا فى الأفواه ٠

الوجه الثانى : أن المراد من هذه الحركة : هو السـكوت عن الجواب يقال للرجل اذا أمسك عن الجواب رد يده فى فيـه اذا سكت عنه فلم يجب ، وهذا الوجه مردود لأن قوله تعالى بعد ذلك « انا كفـرنا بمـا أرسـلتم به » يرده ، فهـم قد أجابوا بالتكذيب ، ولم يسكتوا عن الجواب ٠

الوجه الثـالث : المـراد من الأيدى : نعـم الله تعالى عـلى

---

(١) سورة الفتح الآية : ١٠ ٠

(٢) سورة النور آية : ١٥ ٠



ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للازالة والابطال فقوله تعالى « ردوا أيديهم فى أفواههم » أى ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التى صدرت عن أفواههم . ولا يبعد حمل « فى » على معنى « الباء » لأن حروف الجر لا يمتنع اقامة بعضها مقام بعض .

فقد تبين مما سبق كثرة الوجوه والاحتمالات فى تفسير مدلول تلك الحركة الجسمية ، منها ما هو ضعيف وما هو قوى ، ونرى أن تعدد الأوجه القوية فى مدلول الآية يعطى ثراء فى المعنى مادامت تلك الأوجه لا يتعارض بعضها مع بعض ، فان القرآن الكريم حمال أوجه يعجز البشر عن الاتيان بها فى تركيب واحد مما يدل على سمو بلاغته واعجازه .

وأضاف الشريف الرضى وجها آخر غير الوجه الذى أجراه على الاستعارة وقاسه على ما فعل قوم نوح عليه السلام عندما كان يدعوهم الى الايمان بأن يسدوا أسماعهم بأيديهم، ويستغشوا ثيابهم حتى لا يراهم ولا يرونه كما حكى الله تعالى عن نوح مع قومه : « وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا »(١) فاذا كانوا قد سدوا أسماعهم بوضع أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا ما يقوله فلا مانع عندهم أن يمسكوا أفواههم بأكفهم كما يفعل المظهر للامتناع من الكلام ليدلوهم بذلك الفعل على أنهم لا يصغون لهم الى مقال ولا يجيبونهم عن سؤال اذ قد أبهموا طريقى السماع والجواب وهما الآذان والأفواه، ويكون رد الأيدى هنا دالا على تكرار هذا الفعل منهم وكثرته

---

(١) سورة نوح الآية ٧ .

لأنهم كانوا يكثرون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام وبدليل قوله تعالى « كلما » الدالة على هذا المعنى فى قوله تعالى « وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم ... »(١) .

حركة شد اليد بالغل الى العنق :

الغل هو طوق أو قيد تشد به اليد الى العنق . وقد ورد لفظ الأغلال جمعا فى ستة مواضع فى قوله تعالى : « ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الأعراف : ٥٧) وفى قوله تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم » (الرعد : ٥) وفى قوله تعالى : « وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا » (سبأ : ٢٣) وفى قوله تعالى : « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » (غافر : ٧١) وفى قوله تعالى : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون » (يس : ٨) وفى قوله تعالى : « انا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا » (الانسان آية : ٤) وورد اللفظ على صيغة اسم المفعول فى موضعين أحدهما فى المائدة فى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » (آية ٦٤) .

وثانيهما فى سورة الاسراء فى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » (آية ٢٩) . وسنتناول هذه المواضع بالبيان والتفسير وما تدل عليه الحركة من معان بلاغية يتطلبها السياق ويقتضيها المقام .

فآية الأعراف جاءت لبيان صفات محمد عليه الصلاة

---

(١) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن ص ١٢٧ .

والسلام ومن بينها رفع الأثقال والأغلال التى علم الله انها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم أو قد يكون المراد : رفع الشدائد التى كانت فى عباداتهم كقطع أثر البول ، وقتل النفس فى التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وجعلها الله أغلالا، لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع عن الفعل ، فهى استعارة تصريحية للتشديد فى المحرمات هذا على أن العطف فى قوله تعالى : « والأغلال التى كانت عليهم » عطف تفسيرى • وبعض المفسرين جعله للمغايرة فالمراد من وضع الاصر : رفع التكاليف الشاقة والحرج فى الدين ، أما الأغلال فالمراد منها الاذلال والاهانة وعلى هذا يكون فيها استعارة تمثيلية شبه حال المحرر من الذل والاهانة بحال من أطلق من الأسر ، وهذا على تفسير الغل بأنه اطار من حديد يجعل فى رقبة الأسير والجانى والزمخشرى يرى أيضا انها استعارة تمثيلية على وجه آخر فيقول : وكذلك الأغلال مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو : بت القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية ، واحراق الغنائم ، وتحريم السبت وغير ذلك • وقيل : ان الغل فى الآية على الحقيقة فروى عن عطاء أن بنى اسرائيل كانت اذا قامت تصلى لبسوا المسوح فغلوا أيديهم الى أعناقهم ، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة ، وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة(١) •

وحركة الأغلال فى الأعناق فى سورة الرعد قد يكون

(١) الكشاف ١٢٢/٢ •

مرادا بها الحقيقة ، وقد يراد بها المجاز ، فان تعلق قوله تعالى « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » بما قبله بأن يكون وصفا لهم بجانب وصفهم بالكفر ، وفيه الدلالة على امتناعهم عن الايمان، واصرارهم على الكفر يكون الكلام حينئذ جاريا على المجاز لأن فيه بيان حالهم فى الدنيا شبه حالهم فى الاصرار على الكفر وعدم التفاتهم الى الايمان بحال جماعة فى أعناقهم الأغلال بحيث لا يمكنهم الالتفات ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وان تعلق بما بعده بأن يكون من جملة الوعيد أى أن قوله تعالى « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وعيد وقد عطف على ما قبله فيكون وعيدا مثله تكون الأغلال اذا جارية على حقيقتها ، وتكرير أولئك وعطفه بالواو لاستقلال كل من العذابين وشدته ، فالعذاب الأول يحمل معنى الذل والاهانة وهو عذاب نفسى أليم والعذاب الثانى عذاب جسمانى أشد ألما لما فيه الاحراق بالنار وملازمة لهم ملازمة الصاحب لصاحبه الذى لا يفارقه . وهذا الوجه أرجح من سابقه ، لأن « أولئك » الأول وارد للاشعار بأن ما بعده جدير بمن سبق لاتصافهم بصفة الانكار للحشر فى قوله تعالى : « ائذا كنا ترابا انا لفى خلق جديد » ففى الجملة الأولى حكم عليهم بالكفر فى الدنيا ، وذكر فى الجملة الثانية ما يؤولون اليه فى الآخرة على سبيل الوعيد فقال : « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » ، ثم ذكر فى الأمر الثالث ما يستقرون عليه فى الآخرة من ملازمة النار لهم ، وفى تكرار اسم الاشارة أيضا دلالة على تهويل العذاب كما أن فيه دلالة على تقرير تلك الصفات وتأكيد اثباتها للكفار كما أن فيه دلالة على أنهم متميزون بهذه الصفات أكمل تمييز ، وآثر

النظم اسم الاشارة للبعيد للدلالة على مدى بعدهم فى الضلالة، وقد عطفت هـذه الجمل بالواو للتوسـط بين الكمالين لكونها جملا خبرية اتحد فيها المسند اليه وهو المشـار اليه باسـم الاشارة ، وعقب كل مشار اليه بوصف مقصود لذاته مستقل عن غيره للدلالة على كمـاله فيه ، وهو أى الكمال فى الوصف مستفاد أيضا من الحصر على سبيل المبالغة ، أى أن هؤلاء هم الجامعون لهذه الصفات الكاملون فيها • فهم كاملون فى كفرهم ووصل بهم وصف الذل والمهانة الى أقصى مداه بتلك الهيئة التى يكونون عليها يوم القيامة حينما يسـاقون الى العذاب ، وهى شد اليد بالطوق الى العنق والدليل عليه قوله تعـالى : « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسـجرون »(١) والجملة الثـالثة تحمل معنى التهـديد بالعذاب المؤبد وهم المستحقون له دون غيرهم من أهل الكبائر، وهذا غاية العذاب وكماله •

والآية الثالثة هى قوله تعالى : « انا جعلنـا فى أعنـاقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون » هـذه الآية فيهـا بيـان وايضاح للآية السابقة ولذلك فصلت عنها لكمال الاتصال بين الجملتين لكون الجملة الثانية منزلة الأولى منزلة بدل الاشتمال ، فان انتفاء ايمانهم يشتمل على ما تضمنته هذه الآية من جعل أغلال فى أعناقهم حقيقة أو تمثيلا(٢) •

والمعنى على التمثيل جعلنـا حالهم كحال من فى أعنـاقهم

---

(١) سورة غافر : ٧١ ، ٧٢ •

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٢ •

أغلال فهى الى الأذقان فهم مقمحون وهو مثــل لتصــميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل الى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتــون الى الحق ، ولا يعطفون أعنــاقهم نحوه . ولا يطأطئون رؤوسهم له وكالحاصلين بين ســدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهــم متعامون عن النظر فى آيات الله ، وجعل الأغلال فى أعنــاقهم يلزم منه شد أيديهم بها الى أعناقهم بحيث تكون موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوســـهم مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظروا بها الى شىء مما حولهم فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا ، والمقمح : الذى يرفع رأسه ويغض بصره ، وجملة « فهى الى الأذقان » تدل على أن الأغلال ملزوزة الى عظــام الأذقان بحيث اذا أراد المغلول منهم الالتفات أو أن يطأطىء رأسه وجعه ذقنه فلازم السكون ، ولذلك فان قوله تعالى : « فهم مقمحون » نتيجة قوله : « فهى الى الأذقان » أى أن هذه الجملة سبب فى الاقماح، ويجوز أن يكون قوله : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا » .. الخ وعيد بما سيحل بهم يوم القيــامة حين يســاقون الى جهنم فى الأغلال كما أشار اليه قوله تعــالى : « اذ الأغلال فى أعنــاقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يســجرون » وعلى هذا يكون فعل « جعلنا » مستقبلا وعبر عنه بصيغة المــاضى لتحقق وقوعه كقوله تعــالى : « أتى أمر الله » وتكون الأغلال التى وصلت الى الأذقان مما أدى الى الاقماح حقيقة .

والتعبــير القــرآنى يواجه رذيلتين فى المجتمــع البشرى فيصورهما فى صورة حركية غاية فى السخرية الأولى رذيلة الاسراف والثانية ضدها وهى رذيلة البخل ، وان كان القرآن

يركز على الرذيلة الثانية لكثرة شيوعها فى المجتمع لحرص الانسان على حب المال وشحه بانفاقه فى وجوه الخير ، وحبه للتملك ، وعدم التفاته الى أجله المحدود فى هذه الحياة كل هذا يدعوه الى شدة الحرص عليه والى تحصيله من أى طريق حل أو حرم . قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فالبخيل الممسك يصوره القرآن بأنه ليس مجرد مستمسك بما عنده ، ولا مجرد مانع بره عن الناس ، وانما هو شخص مغلول اليدين ، وليس وضع الغل أو وضع اليدين فى الغل عاديا كما يألف الناس فى الأغلال ، وانما تراهما مغلولتين الى عنقه ، وتصورنا لشخص غلت يداه الى عنقه ، لا شك أنه يدعو الى الطرافة والعجب ، ويجعل المتصف بهذه الصورة أضحوكة وموضعا للتبذر ، ويصور القرآن الرذيلة الثانية وهى التبذير بصورة انسان يبسط يده غاية البسط ونهايته ، وهو المفاد بقوله : « كل البسط » أى البسط كله الذى لا بسط بعده ، وهو معنى النهاية ، وبسط اليد يعنى أنها فارغة لا تملك شيئا ، ولاتمسك على شىء ، وهكذا يكون مصير المسرف حين يجد نفسه بعد حين لا شىء فى يده ، ثم يصور القرآن نهاية ونتيجة كل من البخيل الممسك ، والمبذر المسرف بين الناس فالبخيل « قاعد » وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد حركته قليلة وبطيئة لا يمتد أثره الى شىء يذكر ويحمد عليه من الله والناس ، فالبخيل بعيد من الله بعيد عن الناس ، كما ورد فى الحديث الشريف ، والبخيل يتلقى اللوم الذى ينهال عليه من كل جانب وقد قيل :

● ان البخيل ملوم حيثما كانا ●

والمبذر أيضا قعيد الأرض بعد أن نفد ماله ، لا حركة له، ولنا أن نتخيله أو نتمثله جالسا مطرقا الى الأرض ، شارد الذهن يفيض أسى وحسرة وألما بعد أن أصبح صفر اليدين فلم يجد من ماله شيئا فكل منهما أصبحت حركته مقيدة بالانزواء الى الأرض فقوله : « فتقعد ملوما محسورا » جواب لكلا النهيين على التوزيع بطريقة اللف والنشر المرتب فلف بينهما في قوله « تقعد » ثم نشر فرجع الملوم الى النهى عن الشح فهذه صفته وحاله بين الناس والمحسور يرجع الى النهى عن التبذير فهذه نهايته وصفته الملازمة له • ومن هنا فان المحمود فى العطاء هو الوسط الواقع بين طرفى الافراط والتفريط فالفضيلة وسط بين رذيلتين كما قال الحكماء •

واذا كان المولى عز وجل قد وصف البخيل بهذا الوصف وهو عام فى كل بخيل فانه تعالى وصف المنافق بهذه الصفة فالبخل من الصفات الأساسية للمنافقين ، ولكنه سبحانه صورها هنا بصورة أخرى وهى صورة قبض الأيدى المقابلة لبسطها ، ولا نقول المقابلة لبسطها كل البسط ، لأن بسط اليد بمعنى انفاقها فى اعتدال هو الحد المطلوب فى الانفاق أما أن يترك يده مبسوطة كل البسط الى النهاية فهذا هو المذموم ، فالقرآن يسخر من بخل المنافقين وهو لا يعبر عن بخلهم بالألفاظ وانما يصورهم فى هذه الصورة الحركية وأيديهم مقبوضة، لا تنبسط بأى خير ولا تمتد بأى بر قال تعالى : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون »(١) •

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٧ •

واذا كان البسط لليد كل البسط قد استعمل فى هذا السياق للتبذير فان بسطها فى آية أخرى قد استعمل بمعنى امتدادها بالعدوان والقتل كما فى قوله تعالى : « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك »(١) وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم ايديهم فكف أيديهم عنكم »(٢) فالمراد من بسط اليد فى الآية الأولى : حركتها العدوانية الباطشة من أجل القتل ، وقد نفى هابيل عن نفسه هذه الحركة على أبلغ وجه وآكده وذلك بتقديم ضميره « أنا » بعد النفى «ما أنا» ودخول الباء - بباسط - لزيادة التأكيد فى نفى البسط عن نفسه - ولذلك يقول الزمخشرى : فان قلت : لم جاء الشرط بلفظ الفعل ، والجزاء بلفظ اسم الفاعل ، وهو قوله : « لئن بسطت . ما أنا بباسط »؟ قلت ليفيد أنه لا يفعل هذا الوصف الشنيع ، ولذلك أكده بالباء المفيدة لتأكيد النفى .. »(٣) .

وأما الآية الثانية فهى تنادى جماعة المؤمنين بأن يتذكروا نعمة الله بالنجاة من شر هؤلاء الأعداء من اليهود فقد هموا أن يبسطوا أيديهم الى المؤمنين ، وذلك كناية عن القتل والاهلاك فسارع المولى عز وجل بافساد مكرهم وكيدهم للمؤمنين بأن كف أيديهم عنهم ، فالفاء العاطفة تفيد المسارعة الى هذا الكف تتميما للنعمة . وقد جاءت الأيدى هنا مظهرة فى موقع

---

(١) المائدة الآية : ٢٨ .

(٢) المائدة : ١١ .

(٣) الكشاف ٦٠٧/١ .

الاضمار لزيادة التقرير ، ولافادة أن هذه الأيدى التى بسطت بالعدوان على المؤمنين هى التى كفهـا الله عن مباشرة الفعـل والحاق الأذى والقتل بالمؤمنين ٠

وورد بسط الأيدى والألسنة بالسوء فى قوله تعالى : « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسـنتهم بالسـوء وودوا لو تكفرون »(١) فالبسط هنـا ـ كما يقول صاحب التحرير والتنوير ـ مستعار للاكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل ، وتشبيه ضده وهو القبض بضـد ذلك ، فبسط اليد : الاكثار من عملها ، والمراد به هنـا : عمل اليد الذى يضر مثل : الضرب والتقييد والطعن ، وعمل اللسان الذى يؤذى مثل الشتم والسخرية والتهكم ، ودل على ذلك قوله: بالسوء ٠٠٠(٢) ٠ وقيل : ان بسط اليد فى هذه الآية:كناية عن القتل والأسر ، وبسط الألسنة كناية عن الشـتم والايذاء القولى يقال : بسط اليه يده اذا بطش به ، وبسط اليه لسانه اذا شتمه وهذا الوجه أولى بالقبول لأن الكثرة التى جعلها الشيخ ابن عاشـور بمعنى البسط أى أن البسط مسـتعار للكثرة هى مفهومة من صـيغة الفعل « يبسطوا » اذ فيه دلالة على تجـدد الحدث واستمراره ٠

حركة اليد بالضم والنزع والسلك والادخال :

ورد الأمر الالهى لموسى عليه السلام فى بيان معجزة اليد مرة بالضم وأخرى بالسلك وثالثة بالادخال فى قوله تعـالى :

---

(١) سورة الممتحنة الآية : ٢ ٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/١٤٠ ٠

« واضمم يدك الى جناحك »(١) « وأدخل يدك فى جيبك »(٢) و « اسلك يدك فى جيبك »(٣) والأمر بالضم قد جاء فى موضعين وهما قوله تعالى : « واضمم يدك الى جناحك » وقوله تعالى : « واضمم اليك جناحك » ٠

والزمخشرى يبين المضموم والمضموم اليه فى الموضعين ويوفق بينهما فيقول : فان قلت : قد جعل الجناح وهو اليد فى احد الموضعين مضموما وفى الآخر مضموما اليه ، وذلك قوله : « واضمم اليك جناحك » وقوله : « واضمم يدك الى جناحك » فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالجناح المضموم اليه هو اليد اليسرى ، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراها جناح(٤) ٠

« تقليب الكفين » :

فى قوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها »(٥) معنى تقليب الكفين أن يبدى بطن كل منهما ثم يعوج يده حتى يبدو ظهر كل منهما يفعل ذلك مرارا دل عليه الفعل « يقلب » حيث جاء مضارعا لافادة تجدد الحدث واستمراره ، وهو كناية عن الندم والتحسر ، وليس ذلك من قولهم :

وضربنا الحديث ظهرا لبطن   وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

---

(١) سورة طه آية : ٢٢ ٠

(٢) سورة النمل : ١٣ ٠

(٣) سورة القصص آية : ٣٢ ٠

(٤) الكشاف

(٥) سورة الكهف آية ٤٢ ٠

فان ذلك مجاز عن الانتقال عن بعض الأحاديث الى بعض ، ولكونه كناية عن الندم • عدى بعلى فى قوله : « على ما أنفق فيها » فالجار والمجـرور ظرف لغو متعلق بيقلب ، كأنه قيـل : فأصبح يندم على ما أنفق أو عدى بعلى لأنه ضمن معنى : يندم• أى ضمن يقلب معنى يندم لأن النادم يفعل ذلك • والضمير فى قوله : « فيها » يعود الى عمارة جنتيه للدلالة على أن الندم انما يكون على الأفعال الاختيارية التى لم تبلغ الغاية المرجوة منها ، وبهذا يعلم وجه تخصيص الندم على ما أنفق بالذكر دون هلاك الجنة ، وقد يقـال : ان المراد من الكفين : الملك لأنه يعبر عنه باليد من قولهم فى يده مال أى فى ملكه مال أى فأصبح يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق(١) • وهـذا المعنى فيه بعـد فاطلاق اليدين وارادة الملك فيه خفـاء وابهام لعدم وضـوح القرينة مما يتنافى مع مراد الله من كلامه الذى لا خفاء فيه ، ودل قوله : « فأصبح » على أن هذا الاهلاك جرى بالليل، كقوله تعالى : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصـبحت كالصريم »(٢) وهذا الجاحد المشرك لم تستيقظ فطرته الا فى هذا الوقت العصيب الذى يرى فيه ثمر جنته مدمرا من كل جانب لم يسلم منه شىء بدلالة قوله تعالى : « وأحيط بثمره » أى أن الدمار أخذها من جميع جوانبها وأقطارها • هنا تندم حين لا ينفع الندم •

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٤٠٢٧/٦ •

(٢) سورة القلم آية : ٢٠ •

حركة شـد العضـد :

أصل العضد : ما بين المرفق الى الكتف • وقد استعملت في القرآن في موضعين الموضع الأول في سورة القصص قال تعالى : « قال سنشد عضدك بأخيك » •

والموضع الثاني في سورة الكهف في قوله تعالى : «وماكنت متخذ المضلين عضدا » •

استعمالها في الموضعين مجاز بمعنى المعين والناصر كأنه أعانه بعضده كما استعمل الظهير أيضا كناية عن التقوية والمؤازرة كأنه أسنده بظهره ، والساعد كأنه قواه بساعده وأوثر العضد بمعنى المؤازرة والتقوية لأن قوة اليد بالعضد قال طـرفة :

بني لبيني لستم بيد الا يدا ليست لها عضـد

ويقال في دعاء الخير شد الله عضدك ، وفي ضده : فت في عضدك(١) • وجعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يشد به ، والمراد أنه يؤيده بفصاحته • وقيل : ان شـد عضـده كناية تلويحية عن تقويته ، لأن اليد تشتد بشدة العضـد ، والجملة تشتد بشدة اليد • وقد يكون شد عضده بأخيه من قبيل التمثيل أي هو استعارة تمثيلية شبه حال ايضاح حجته بحال تقوية من يريد عملا عظيما أن يشد على يده أو يكون المراد شبه حال موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد •

---

(١) الاعجاز البياني للقرآن للدكتورة بنت الشاطيء ص ٤١٧ .

حـركة الوجـه

الوجه له تقلبات واتجاهات واشارات تعبر عما فى ضمير صاحبه وتكشف عن حالته النفسـية ، وهو أشرف عضـو فى الانسان ، وبه يتوجه المرء نحو خالقه داعيا متضرعا ، ولذلك جاء استـعمال القرآن للوجه للدلالة على الذات فى كثـير من المواضـع منهـا قوله تعـالى : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » (الأنعام آية ٧٩) وقوله تعالى : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم » (سورة يوسف آية ٩) قال تعالى : «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (سـورة الرحمن آية ٢٧) قال تعـالى « فأقم وجهـك للدين حنيفا » (سورة الروم آية ٣٠) وقوله تعالى : « بلى من أسـلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه» (سورةالبقرةآية١١٢) واستعمل هـذا اللفظ للدلالة على الفـرح والسرور وذلك بما يتبعه من وصـف يدل على هـذا المعنى ، وللدلالة على الغضب والعبوس والذلة والانكسـار ، والآيات فى ذلك كثيرة منهـا قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة» (سورة عبس آية٣٨) وقوله تعالى «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» (سورة القيامة آية٢٢) وقوله تعالى:«ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » (سورة عبس آية : ٤٠) وقوله تعالى : « ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » (سورة القيامة آية ٢٤) وخص الوجه بالحاق العذاب به لما فى ذلك من الذلة والمهانة لا سيما يوم القيامة قال تعالى : « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » (سورة ابراهيم آية ٥٠) وقال تعالى : «تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » (سورة المؤمنون آية ١٠٤) وقال تعالى : « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النـار »

(سورة النمل آية ٩٠) وقال تعالى : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » (سورة القمر آية ٤٨) .

ولنبدأ بتحليل حركة الوجه فى بعض الآيات وما تشير اليه الحركة من أسرار بلاغية منهـا قوله تعـالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولى وجهك شـطر المسـجد الحـرام ، وحيثمـا كنتم فولوا وجوهكم شـطره » (سـورة البقـرة آية ١٤٤) فقـد بانت حـركة وجهـه صلى الله عليه وسلم وتقلبه نحو السـماء عن رغبته صلى الله عليه وسلم وشدة تعلقه بالاتجاه شطر المسجد الحرام ، فالمراد من تقلب الوجه فى السماء حركته المعبرة عن رغبته الشديدة صلى الله عليه وسلم فى تحويل القبلة الى المسجد الحرام ومن ثم فهو دائم التطلع الى السماء سائلا الله عز وجل أن يحقق له ما يحبه ويرتضـيه فهذا التعبـير كناية عن ملازمة الدعاء .

ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير : أن المراد بتقليب الوجه الالتفات به أى تحويله عن جهته الأصلية الى جهة أخرى أى أن هـذا التعبير كناية عن تحويل وجهـه الى القبلة التى يرضـاها ، ولذلك يقـول : قوله « فلنولينك قبلة ترضاها » تأكيد للوعد بالصراحة بعد التمهيد لها بالكناية ، وأكده أيضا باللام والنون والفاء »(١) ونقول : ليس فى الآية تكرار وانما هما معنيان قد ترتب أحدهما على الآخر فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمنى من قلبه تحويل القبلة الى المسجد الحرام ، وكان دائم التطلع الى السماء مقلبـا وجهه داعيـا الله

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٦ .

عز وجل أن يحقق له رغبته وقد استجاب الله له عقب ذلك التوجه مؤكدا له تحقيق أمنيته فقال فلنولينك قبلة ترضاها « فالتعبير بترضاها للدلالة على أن ميله وحبه للكعبة لقصد الخير بناء على أن الكعبة أجدر بيوت الله بالتوجه اليها فى الصلاة ولما كان الرضى مشعرا بالمحبة الناشئة عن تعقل اختير فى هذا المقام دون تحبها أو تهواها أو نحوهما »(١) ·

وفى قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » مجاز مرسل من اطلاق الجزء وهو الوجه وارادة الكل أى أن علاقته الجزئية ·

وفى قوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين حنيفا » اقامة الوجه هنا استعارة لافراد الوجه بالتوجه الى الدين بحيث لا يلتفت الى شيء غيره أى يظل قائما على تعاليم الدين لا يغيب بصره وذهنه عنه لحظة من اللحظات فيكون المعنى محض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكا فى توجهك وهذه الاستعارة التمثيلية كناية عن الاخلاص فى العبادة وتوجه النفس بأسرها لها · ومنه أو قريب منه قوله تعالى : « أسلمت وجهى لله » ·

وفى قوله تعالى : « يخل لكم وجه أبيكم » كناية اما عن خلوص محبته لهم ، لأنه يدل على اقباله عليهم ، لأن من يقبل على الشيء يقبل بوجهه عليه ، والاقبال عليهم يدل على خلوص محبته لهم ، لأن من لا يحب الا شيئا لا يقبل الا عليه فيكون الاقبال بالوجه لازما للاقبال عليهم ، والاقبال عليهم لازما

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٧ ، ٢٨ ·

لخلوص المحبة لهم ففيه انتقال من اللازم الى الملزوم بمرتبتين فهو كناية تلويحية ، واذا كان الوجه بمعنى الذات على المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية من اطلاق الجزء وارادة الكل كان الانتقال من اللازم الى الملزوم بمرتبة واحدة فهو كناية ايمائية . واما أن يكون هذا التعبير كناية عن التوفر على نظم أحوالهم وتدبير أمورهم ، وذلك أن خلو الوجه لهم يدل على الفراغ من شغل يوسف والاشتغال بهم ، وذلك يدل على الاهتمام بأحوالهم ونظم مصالحهم ، وعلى هذا القول لا يراد بالوجه الا الذات بخلاف القول الأول فانه يحتمل الوجهين الذات والجارحة المخصوصة(١) .

وفي قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار »(٢) الحركة هنا مفزعة والجزاء من جنس العمل ، لأن هؤلاء الكفار قد تنكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم فكان جزاؤهم الانكباب فى النار لأنهم من قبل قد أعرضوا عن الحق، وكبت بمعنى ألقيت أو طرحت يقال : كببت الاناء أى قلبته على وجهه . وعبر بالوجه وأراد الجسم كله من اطلاق الجزء وارادة الكل وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية وآثر ذكر الوجوه دون الرؤوس أو الأعناق لأن الوجه هو أشرف ما في الانسان فاذا طرح فى النار يكون غيره من بقية الأعضاء مطروحة فى النار من باب أولى . ويقول الزمخشرى ويجوز أن يكون ذكر الوجوه ايذانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ، لأن الانتكاس قد يكون من قبل الوجه كما فى هذه الآية وقد يكون

---

(١) حاشية قطب الدين الرازى على الكشاف ورقة ٢٠٥ .

(٢) النمل آية : ٩٠ .

من قبل الرؤوس كما في قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون »(١) ويؤيد هذا ما جاء فى اللسان كببت القصعة قلبتها على وجهها وطعنه فكبه لوجهه (مادة كبب) •

ومنه قوله تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاوون »(٢) الكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه اذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها ويقول سيد قطب واننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشىء من الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف ، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه يعنى أن أهل النار يرمى بهم فى هوة سحيقة فى سجين يترتب على ذلك أن يطرح بعضهم على بعض مرة بعد مرة حتى يستقروا فى قعر جهنم(٣) وقوله تعالى « وجنود ابليس أجمعون » من عطف العام على الخاص لتكون الكبكبة شاملة للجميع ممن اتبع الشيطان •

انكباب الوجه :

فى قوله تعالى أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم »(٤) ضرب الله تعالى مثلا للمؤمن

---

(١) سورة الأنبياء ٦٥ •
(٢) سورة الشعراء آية : ٩٤ •
(٣) فى ظلال القرآن ٥/٢٦٠٥ ط دار الشروق •
(٤) سورة الملك آية : ٢٢ •

والكافر فمثل حال المؤمن المهتدى بنور الله الذى يسير وفق نواميسه فى الطريق المستوى لا عوج فيه ولا عثرات بحال من يمشى سويا معتدلا مستقيما فى طريق ممهد يأمن فيه من العثرات ومثل أيضا حال الكافر الشقى الضال عن طريق الله المحروم من هداه الذى يصطدم بنواميسه ومخلوقاته لأنه يعترضها فى سيره فيتخذ له مسارا غير مسارها وطريقا غير طريقها فهو دائما فى تعثر وعناء بحال من يمشى مكبا على وجهه اما أن يكون هو الذى يمشى على وجهه فعلا لا على رجليه فى استقامة كما خلقه الله ، واما أن يكون هو الذى يعثر فى طريقه فينكب على وجهه ثم ينهض ليعثر من جديد وهكذا واما أن يكون هو الذى يسير منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله فلا يأمن من العثور والانكباب على وجهه . ويجوز أن يراد بالمكب على وجهه الأعمى الذى لا يهتدى الى الطريق فيعتسف فلايزال ينكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوى الصحيح البصير الماشى فى الطريق السوى المهتدى له . وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية التى شبهت فيها حالة بحالة وقد حذفت الحالة المشبهة واستعيرت لها الحالة المشبه بها،والتعبير بالانكباب هنا فيه دقة لأن الكافر أكب على معاصى الله فكان جزاؤه من جنس عمله بأن يحشره الله يوم القيامة على وجهه كما قال تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » وكما سبق فى قوله تعالى « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » .

وفيه دلالة على انقلاب الفطرة عنده فطرة النفس البشرية التى فطر الله الناس عليها وهى تتفق مع ناموس الوجود وتتناسق معه ، فانحرف عنها وتباعد . وايثار كلمة « سويا »

على « مستويا » ليكون اسم فاعل من استوى يقابل قوله : « مكبا » للدلالة على الاستواء الحسى وهو الاعتدال والمعنوى وهو سلامة آلات الادراك من أى خلل أو مرض يفقد أو يقلل من وظيفتها فى سلوك الطريق المستقيم قال تعالى « الذى خلقك فسواك فعدلك » ، فلو أتى بلفظ مستويا لأوهم ان المراد اعتدال الخلقة على الصراط المستقيم فقط وانما لفظ « سويا » يوحى باعتدال الخلقة والخلق واستقامة الفطرة مع الدين الحق،والصراط المستقيم هو أقرب طريق موصل للغرض المقصود فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوج طال وبعد ويتضمن ايصاله الى المقصود ، وتوحيد الصراط دلالة على عقيدة سالكيه فى عبادتهم الها واحدا واتجاههم فى العبادة الى قبلة واحدة واتباع شريعة واحدة مستقيمة قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » • وفى الآية مقابلة بين الكافر والمؤمن • الكافر الذى يتوجه بعبادته الى آلهة كثيرة منها اللات والعزى ومناة وغيرها • والمؤمن الذى يتوجه بعبادته الى اله واحد ، ومقابلة بين المنقلب على وجهه الذى تعطلت فيه منافذ الادراك ، وبين المؤمن المعتدل فى خلقته وخلقه لسلامة منافذ الادراك فيه ومقابلة بين الطرق الملتوية التى يسلكها الضال فلا يصل الى مقصوده وبين الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمتا ، والدليل على صحة ما ذهبنا اليه فى تفسير الآية قوله تعالى بعد هذه الآية : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » •

وفي ألفاظ الآية وإيثارها في التعبير على غيرها اشارات وإيحاءات بلاغية تفهم من دلالة اللفظية من حيث مادتها أو صيغتها وفقا لسياقها الذى وردت فيه من ذلك : أن قوله تعالى : « أهدى » أفعل تفضيل مشتق من الهدى وهو معرفة الطريق ، وقد يكون هذا التفضيل على بابه فيكون قد أثبت للكافرين هداية ، وعلى هذا يكون الكلام من باب مجاراة الخصم واستدراجه بأن يجاريه على زعمه بأن له هداية ما ، وهذا يجعله ينظر في القضية نظرة انصاف ويجتهد في ذلك لعله يترك التعصب والعناد ويقر بالحقيقة التى لا تخفى على من له مسكة من عقل ، ولكن الجحود أصم آذانهم وأعمى أبصارهم . ويعين على ذلك اتيان الآية مصدرة بالاستفهام المجازى المفيد للتقرير ، وقد يكون اسم تفضل مسلوب المفاضلة لأن الذى يمشى مكبا على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى : « قال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه » في قول كثير من الأئمة(١) ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام(١) وايثار الوجه دون باقى أعضاء الجسم لأن الوجه هو أشرف جزء في الانسان ففيه دلالة على الذلة والمهانة كما أن الوجه به منافذ الادراك من السمع والبصر والعقل ، فاذا انكب على وجهه فانه لا يدرك شيئا أمامه أو خلفه أو عن يمينه وشماله لأن وجهه أصبح ملاصقا للأرض فلا يرى شيئا سوى ترابها الذى تخبط فيه فلا يقدر على المشى أو الاهتداء الى جهة معينة يسلكها أصبح طريقه ملتويا متعرجا كأنه طرق متعددة بدليل مقابلته بالطريق المستقيم في الجانب الآخر الأهدى « أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٤٦ .

صـك الوجـه :

جاء فى التنزيل الحكيم : قوله تعالى « فأقبلت امـراته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم »(١) حكاية عن سارة زوج ابراهيم عليه السلام،حين جاءته الملائكة ، وبشروه بغلام عليم وهى فى سن يستبعد فيها الحمل،فحين علمت بذلك صاحت صيحة الدهش والتعجب من وقع المفاجأة ، ولم تكتف بذلك بل عبرت عن شدة تعجبها بضرب يدها على وجهها أو على جبهتهـا على عـادة النساء عند التعجب ، والمـرء يدهش عندما يـرى ما يخـالف المـألوف له ، ويعجب كيف يكون ، ولكن المشـيئة الالهية المطلقة لا تتقيد بمألوف البشر • فقد علمنا التعجب من هذه الصيحة المصحوبة بالتأوه ، أما مقداره وشدته وقوته فقد علمناه من نقل مشهد حركة اليد وهى تضرب الوجه • وممـا تجدر الاشارة اليه أن استبعادها هذه البشرى الناتج من شدة التعجب ليس من حيث قدرة الله ، فقدرته تعالى ليس لها حدود ولكن من حيث العادة التى أجراها الله تعالى على سائر النسـاء فى سـنها وتستمر فى التعجب بالأسـلوب الخبرى فى قـولها : « عجوز عقيم » أى أنا عجوز عقيم لا أنجب فكيف يحدث هذا ، وحذف المسند اليه هنا لضيق المقام • وعـلى هذا يكون التعجب قد تنوع بين الصيحة المصحوبة بالتأوه ، وبين الفعـل الحركى بصك الوجه ، وبين الأخبار القولى فى قولها « عجوز عقيم » •

وقد ورد هذا التعجب فى مقـام آخر مضمنا بالاسـتفهام ومؤكدا بالتصريح به بعـده فى قـوله تعالى : « قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشىء عجيب »(٢) ويبدو

---

(١) سورة الذاريات ٢٩ • (٢) سورة هود ٧٢ •

آنها قالت ذلك بعد أن حاضت وتهيأت للحمل ، وأنكرت عليها الملائكة تعجبها فقالوا « أتعجبين من أمر الله » ، لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة ، وأن تسبح لله وتمجد وكان التعجب(١) •

حركة الانقلاب على الوجه :

في قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » (الحج ١١) •

ففي قوله : « انقلب على وجهه » كناية عن ارتداده عن الدين الحق وهو دين الاسلام أي أنه رجع الى وجهه الذي كان عليه من الكفر ، لأنه كان يعبد الله على حرف أي على طرف من الدين فهو غير متمكن في العقيدة ، ولا متثبت في العبادة يصوره الله تعالى في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى • ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب فهو ينكفيء عن عقيدته وينتكس عن الهدى الذي كان ميسرا له(٢) ويقول الزمخشري : وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فاذا أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه(٣) وهي من الاستعارة التمثيلية •

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢٨١/٢ •
(٢) في ظلال القرآن •
(٣) الكشاف ٧/٣ •

والزمخشرى كثيرا ما يطلق التمثيل على الاستعارة التمثيلية أو التشبيه التمثيلى بل ويريد به الاستعارة بالكناية، والكناية والاستعارة فى المفرد ، فالتمثيل مصطلح لم يكن محددا عنده تحديدا دقيقا(١) .

وقد تدل هيئة الوجه على ما فى نفس صاحبه من غيظ وحنق أو فرح وسرور أو غضب أو رضى ، وغير ذلك من الوجدانات النفسية .

ففى قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » (الحج ٧٢) .

فالمقام الدال على هيئة الوجه هنا انما هومقام غضب وغيظ وحنق على المسلمين الذين يتلون عليهم آيات الله ، وقد دل عليه هيئة الوجه من عبوسه وتقطيبه ،فالمولى عز وجل قد صور مدى غضبهم وغيظهم فى صورة نشاهدها على وجوههم ، ونعرف منها ما تدل عليه داخل أنفسهم ، والمنكر اسم مفعول بمعنى المصدر وهو الانكار ، كالمكرم بمعنى الاكرام ، وفى التعبير باسم المفعول عن المصدر دلالة على معرفة عين الشىء المنكر ، وليس مجرد الانكار على وجه الاطلاق اذ أن المصدر يدل على مجرد الحدث فقط بينما اسم المفعول يدل على حدث وذات ، ويترقى الانكار الذى يعرف من وجوههم الى مقاربة البطش بالمسلمين يقال سطا به يسطو اذا بطش به فيكاد يترجم الى واقع فعلى .

ويصور القرآن يوم الحشر كأنه قد جاء وهم عاينوه بالفعل

---

(١) البلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى : ٤٣٢ .

وهو اليوم الذى كانوا يسألون عنه بقولهم : « متى هذا الوعد» ؟ ولما كان الوعد أمرا محققا لا محالة عبر عنه بالماضى فهو بمنزلة الحدث الذى وقع وانتهى زمن حدوثه ، وكثيرا ما يسلك القرآن هذه الطريقة لا سيما فى مجال الوعد والوعيد . ويكشف القرآن عن هيئة وجوه هؤلاء الكفار عندما يعاينون شدائد هذا اليوم وأهواله المفزعة وهى هيئة أو حالة تعبر عن الاستياء الشديد أى أن رؤية الوعد ساءت وجوههم بأن علتها الكآبة ، وغشيها الكسوف والقترة كما يكون وجه من يقاد الى القتل أو يعرض على بعض العذاب .

ويكشف المولى عز وجل عن حال الأبرار من المؤمنين يوم القيامة عندما يقضى بين الخلائق ويدخلوا الجنة وينالوا من نعيمها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فانه من شدة سرورهم وفرحهم بهذا النعيم يظهر ما بداخلهم على وجوههم حتى ان أى راء عندما ينظر فى وجوههم يرى علامات النعيم من نضارة الوجه وبشاشته واشراقه مرتسمة على وجوههم ، والنضرة : البهجة والحسن ، واضافة « نضرة » الى النعيم من اضافة المسبب الى السبب ، أى النضرة والبهجة التى تكون لوجه المسرور الراضى اذ تبدو على وجهه ملامح السرور قال تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم »(١) .

ويعرض الله تعالى لحال كل من فريقى المؤمنين والكافرين يوم الحشر ، وما يدخل فى قلوب المؤمنين من الفرح والسرور فيبدو ذلك على وجوههم يعلوها البشر والسرور والاشراق ، وما يدخل

---

(١) سورة المطففين الآيات : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

فى قلوب الكافرين من الحزن والضيق والخوف فيبدو ذلك على وجوههم كأنها ناطقة ومعبرة عن دواخلهم فتعلوها الكآبة ويغشاها السواد ، وتعتريهم الذلة والانكسار وذلك فى قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(١) هما صورتان متقابلتان لبيان حال أهل الجنة وصفاتهم وأحوال أهل النار وصفاتهم كما هو منهج القرآن فالذين أحسنوا بدون ذكر المتعلق وهو المفعول به لافادة عموم الاحسان فى كل شئ يتعلق بأمر دنياهم وأخراهم أحسنوا الاعتقاد وأحسنوا العمل وأحسنوا كل مايؤدى بهم الى الصراط المستقيم ... الى غير ذلك من وجوه الاحسان التى لا يحيط بها الحصر ففى الحذف ايجاز مع تكثير المعنى لأن المتعلق لو ذكر لقيد به ، وكان المعنى مقصورا على ماذكر ، ونلحظ هنا دقة النظم القرآنى فى ابراز التجانس بين العمل والجزاء فهم أحسنوا العمل فجزاؤهم الحسنى وهى الجنة فالجزاء من جنس العمل ، وليس هذا هو جزاؤهم وحده بل معه الفضل والزيادة وهى كما قال المفسرون رؤية الله تعالى ، وهى غاية الرضوان ، ثم أبرز لنا ما بداخل نفوسهم من السعادة والسرور بنعيم الله ورضوانه بما نشاهده على وجوههم من نضرة النعيم وبياض الوجوه ، فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم

---

(١) سورة يونس ٢٦ ، ٢٧ .

الذلة « والتعبير يوحى بأن فى الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله يضاف الى الجزاء المزيد فيه »(١)

وفى الجانب المقابل نجد أنه عدل عن فعل الاساءة فى جانب الكافرين المقابل للاحسان فى جانب المؤمنين الى فعل الكسب فى قوله تعالى «والذين كسبوا السيئات» للاشارة الى أن اساءتهم من فعلهم وسعيهم « فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » ، ومعنى اغشيت وجوههم : أحيطت بها وغطتها سواد فى غاية الشدة حيث شبه ما يبدو على هيئتهم من الذلة والانكسار ، وما يرى على وجوههم من السواد نتيجة للخوف والفزع بظلام الليل وليس مجرد الظلام ، وانما هو الظلام الشديد فى ظلمته وسواده لأنه عبر عنه بقطع من الليل فلم يكتف بقطع من الليل الموصوف بالظلمة المتضمنة فيه بل صرح بالوصف تأكيدا وبيانا لشدة الظلمة ، وهنا تعبر هذه الصورة الحسية وهى احاطة وجه المكروب المرعوب بالسواد الشديد عن ظلام النفس وكدرتها ، فالسواد المعنوى فى نفس الكافر يبرز على وجهه سواد حسى قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه »(٢) وقال : « وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة »(٣) كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه .

---

(١) فى ظلال القرآن ١٧٧٩/٣ .

(٢) آل عمران ١٠٦ .

(٣) عبس ٤٠ ، ٤١ .

اشـارة الرأس وحركتهـا :

فى النظم القرآنى أوصـاف للرأس من حيث حركتهـا ، وهيئة هذه الحركة تعبر عن معان بلاغية نوضحها من خلال الآيات: قال تعالى : « مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم »(١) تسبقها آية أخرى وهى قوله : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » وهو مشهد حركى من مشـاهد يوم القيـامة يبرزه لنا المولى عز وجـل فى صورة حسـية مشاهدة كأننـا نراها بعيوننـا ، وهى حركات متوالية تتمثل فى : شـخوص الأبصـار أى أن أبصـارهم أى أعينهم تظل مفتوحة ولا تغمض من هول ما ترى ، لأنها مبهوتة مذهولة لا تلتفت الى شىء ، فهـذا التعبير كنـاية عن الدهشـة والذهول .

والحركة الثانية ناتجة عن الأولى ومترتبة عليها وهى حركة الاهطاع أى الاسراع ، فبعد شخوص أبصارهم من شدة الذهول من هول ما ترى يسرعون لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون الى شىء .

والحركة الثالثة هى : اقناع الرأس أى : رفعهـا ، والمقنع الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه لا ينظر أحد الى أحد وقد يستعمل الاقناع فى ضد هذا المعنى يقـال : أقنـع اذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا ، ولا تعارض بين المعنيين اذ هما فى حالين مختلفين ، فتارة يرفعون رؤوسهم ويشخصون أبصارهم الى ما يشـاهدون من الرعب فلا تطرف أعينهم ، وتارة أخـرى

---

(١) سورة ابراهيم آية : ٤٣ .

يخفضون رؤوسهم ذلة وانكسارا ، وحسرة على ما فات ، وفي كلتا الحالتين تظل أبصارهم شاخصة لا يرتد اليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء أى قلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ومنه قول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

فقلوبهم خلت من التماسك والقوة يقال : قلب فلان هواء اذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جرأة .

وفى قوله تعالى : « فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا »(١) يقال : نغض الشيء ينغض نغضا ونغوضا وأنغض : تحرك واضطرب ، وعلى هذا يكون المعنى يحركون رؤوسهم استهزاء أو تعجبا وانكارا ينغضونها علوا أو سفلا .

قيل : اذا أخبر المرء بشيء فحرك رأسه انكارا له فقد أنغض قال ذو الرمة :

ظعائن لم يسكن أكناف قرية بسيف ولم ينغض بهن القناطر

أى لم تحرك ومنه أيضا قول الشاعر :

أنغض نحوى رأسه وأقنعا كأنه يطلب شيئا أطمعا

ومنه قيل للظليم وهو والد النعامة نغضا ، لأنه اذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه ، ويقال : نغضت سنه اذا تحركت وارتفعت من منبتها .

---

(١) سورة الاسراء آية : ٥١ .

وقال الراجز : « ونغضت من هرم أسنانها »(١) ٠

وبعد بيان هذه الحركة الدالة على الاستهزاء أو الانكار أتبعها المولى عز وجل بالسؤال الدال على الاستبعاد وهو قولهم : « متى هو » ويحمل معنى الاستهزاء والعناد أيضا لأنهم لم يسألوا للاسترشاد ولم يلتفت الله الى استهزائهم وعنادهم وأجابهم بطريق الجد فأمر رسوله أن يقول لهم : « عسى أن يكون قريبا » فالاستهزاء والعناد صدر منهم بالفعل الحركى والقول اللسانى ٠

وفى قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » نجد الحركة هنا تعبر عن سلوك الكفار فى انقلابهم من الفكرة الصحيحة المستقيمة التى تفتحت بصيرتهم عليها لحظة من اللحظات عندما أقحمهم ابراهيم عليه السلام فى جوابه على سؤالهم بقولهم : «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » ٠

فاعتدالهم فى تفكيرهم يتمثل فى اعترافهم بظلمهم على جهة التوكيد فاستشعروا ما فى موقفهم من سخف ، وما فى عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم فادح ، ولكنها لم تكن سوى ومضة من نور الحق قذفت فى قلوبهم سرعان ما تلاشت وتبددت وحل محلها ظلام النفس حيث عادوا الى الظلم الذى هم سائرون فيه ، ويصور القرآن هذا العود بأنه انتكاس على الرؤوس أى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٤٥ ٠

انقلاب عليها بلا عقل ولا تفكير قائلين : « لقد علمت ماهؤلاء ينطقون » ونرى البون الشاسع بين اعتدالهم فى تفكيرهم ، وانقلابهم عنه بما يشير اليه مدلول حرف العطف « ثم » فى قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم » فانقلابهم فى اعتقادهم وتفكيرهم يصوره القرآن فى انقلاب حركى بالانتكاس على الرؤوس فيصير أعلاهم أسفلهم وأسفلهم أعلاهم •

وفى آية أخرى يقول الله تعالى : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم »(١) وتنكيس الرؤوس هنا فى هذه الآية كناية عن الخزى والذل والمهانة اذ الذليل ينكس رأسه أى يطأطىء رأسه ذلا وانكسارا انه مشهد الخزى والاعتراف بالخطيئة ، والاقرار بالحق الذى جحدوه علوا واستكبارا فكان جزاؤهم أن يقفوا أمام ربهم فى ذل وصغار ، وجواب « لو » محذوف للتفخيم والتهويل ولتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، والتقدير : لرأيت أمرا فظيعا لا يدرك كنهه ، ولا يمكن أن يحيط به الوصف أو لرأيت أسوأ حال ترى ، والحذف هنا أبلغ من الذكر ألا ترى أنك لو قلت لغلامك العاصى « والله لئن قمت اليك » وسكت عن الجواب لذهب بفكره الى أنواع كثيرة من المكروه من الضرب أو الكسر أو القتل ••• الخ ومن ثم يعظم الخوف عنده ، لأنه لم يدر أى أنواع المكروه تبغى ، ولكن اذا ذكرت الجواب بأن قلت : « والله لئن قمت لأضربنك » لعلم من تحديد الجواب أنك لم تبغ شيئا غير الضرب، ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا فى حصول الخوف من ذكره •

---

(١) سورة السجدة آية : ١٢ •

طمس الوجوه وردها على أدبارها :

فى قوله تعالى : « يا ايها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها »(١) الطمس : المحو ، تقول العرب فى وصف المفازة انها طامسة الأعلام ، وطمس الطريق اذا درس ، وقد طمس الله على بصره اذا أزاله وأبطله ، وطمست الريح الأثر اذا محته فالمادة تدور حول المحو والازالة ، وعلى هذا فاذا حمل اللفظ على حقيقته وهو طمس الوجوه يكون المراد منه محو تخطيط صورها فان الوجه انما يتميز عن سائر الأعضاء بما فيه من الحواس فاذا أزيلت ومحيت كان ذلك طمسا ، وهذا تهديد قاس وعنيف ولم يكتف بمجرد محو معالم الوجه وازالة حواسه ، وانما أعقبه برد الوجوه التى محيت معالمها على أدبارها أى ردها الى ناحية القفا ، فالتهديد الحركى بهذين الأمرين الطمس والرد على الأدبار ويلزم منه تنكيس الرؤوس الى الوراء ، فهى صورة قبيحة منفرة تناسب طبيعتهم وتناسب فعلهم الملتوى الذى أخبر الله عنه فى الآية السابقة من تحريفهم للكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة أو بتغيير كلمات الله فى التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتوافق أهواء أهل الشهوات فى تأييد ما هم عليه من فاسد الأعمال ، فأنذرهم الله وهددهم بتغيير خلقتهم وتشويهها كما غيروا فى التوراة وبدلوا ، وكما لووا ألسنتهم بالألفاظ التى تحمل معنيين وهو ما يعرف باسم الكلام الموجه نفاقا منهم فقولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، « واسمع غير مسمع » ذات وجهين يحتمل المدح والتعظيم

---

(١) سورة النساء الآية : ٤٧ .

ويحتمـل الاهانة والشـتم أما أنه يحتمـل المدح فهو أن يكون المراد اسمع غير مسمع مكروها ، وأما أنه محتمل للشتم والذم فهو بمعنى غير سامع أو بمعنى غير مقبول منك ، وهم يقصدون معنى الشتم والذم فأضمروا فى كلامهم قصدا خبيثا .

وطمس وجوههم قد تكون على حقيقتها بأن يسلط الله عليهم ما يفسد به محياهم فان قدرة الله صالحة لذلك ، وقد مسخهم الله أى مسخ بعضا من أسلافهم قردة وخنـازير وهمـا أقبـح حيوانين فى الشكل والخلق ويحتمـل أن يكون الطمس مجازا أى أن المراد ازالة ما به كمال الانسـان وقوامه من اسـتقامة المدارك ، ومن ثم آثر الوجوه بالذكر لأنهـا مجـامع الحـواس والمدركات ، والتهديد لا يقتضى وقوع المهدد به ، وفى الحديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يجعل الله وجهه وجه حمـار .

حركة الوجوه بتقلبها فى النـار :

فى قوله تعـالى : « يوم تقلب وجوههم فى النـار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا »(١) التقليب : شدة القلب، والقلب تغيير وضع الشىء عن جهة غير الجهة التى كان عليها ، والمعنى : يوم تقلب ملائكة العـذاب وجوههم فى النـار بغير اختيـار منهم ، ومعنى تقليبهـا تصريفها فى الجهـات كما ترى البضعة تدور فى القدر اذا غلت فترامى بها الغليان من جهة الى جهة ، أو قد يكون المراد تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها بتغيير ألوانهم بلفح النار فتسود مرة وتخضر أخرى .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٦٦ .

أو قد يكون المراد طرحهـا فى النار مقلوبين منكوسين أو قد يجعل الله ذلك التقلب فى وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشـوى لينضـج جميعه على سواء ، ولو كان لفح النـار مقتصرا على أحـد جانبى الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة ٠

وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء،لأن حر النار يؤذى الوجوه أشد مما يؤذى بقية الجلد ، ولأن الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده فهو مقر الحواس الدقيقة(١) : العيون والأفواه والآذان والأنوف كقوله تعالى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة »(٢) ويجوز أن يكون من باب المجاز المرسـل من باب اطـلاق الجـزء وهو الوجه وارادة الكل وهو الانسان المنـافق وأوثر هذا الجزء لمـا له من مزيد اختصـاص بذوق العذاب ومعـاناة آلامه أكثر من غيره فاذا ما أحرق فى النار كان ما وراءه من سـائر الأعضـاء أولى ، وأتى بصـيغة المضارع للدلالة على تجدد الحدث واسـتمراره « كلما نضـجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب »(٣) ، وتضعيف العين فى الفعل « تقلب » للدلالة على كثرة الحدث ، وتكراره ٠ وايثار حرف الجر « فى » دون « على » لافادة معنى الظرفية وهو أن النار تحتوى على وجوههم بداخلها ، وليسوا فوقها أو على

(١) انظر الكشاف ٢٧٥/٣ والتحرير والتنوير ١١٦/٢٢ ٠

(٢) سورة الزمر من الآية : ٢٤ ٠

(٣) سورة النساء من الآية : ٥٦ ٠

طرف منها ، فالنار تغشاهم من كل جهة ، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها ، والحرص على أن تصل النار الى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة فى النكال ، وهؤلاء يوم تقلب وجوههم فى النار لا يجدون وليا يرثى لهم ولا نصيرا يخلصهم • والانسان اذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه ، والذى يلقى فى النـار يلقى مغلولة يداه الى عنقه فلا يتهيـأ له أن يتقى النار الا بوجهه الذى كان يتقى المخـاوف بغيره ، وقاية له ومحاماة عليه أو أراد بالوجه الكل من باب المجاز المرسـل الذى علاقته الجزئيـة •

حركة الأخذ برأس أخيه وجره اليه :

هذه الحركة فيها دلالة على شدة الغضب حيث تعاون القول مع الفعل الحركى للدلالة عليـه فى قوله تعـالى : « ولمـا رجع موسى الى قومه غضبان أسـفا قال بئسـما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخـذ برأس أخيـه يجـره اليه »(١) ان موسى عليه السلام ـ كان بين يدى ربه فى مناجاة وكلام،وكان قد استخلف أخاه هارون على القوم من بنىاسرائيل قال تعالى : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » انه عليه السلام نصح أخاه هارون بأن يكون خليفته فى قومه ، وأن يصلح ما يجب اصـلاحه من

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٠ •

أمور بنى اسرائيل ، وألا يتبع سبيل المفسدين ، وقد حاول هارون أن يصلح قومه ، ولكنهم ترددوا فى مهاوى الضلالة وانتكسوا باتخاذهم عجلا جسدا له خوار لا حياة فيه يعبدونه من دون الله ، وهذا العجل صنعه لهم السامرى من الذهب الذى قذفه بنو اسرائيل فى النار ، وكانوا قد جمعوه أكداسا من حلى المصريات ، كان عارية عند نساء بنى اسرائيل ، فحملنها معهن ؛ قال تعالى : « ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها » ، لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم الها يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم ردا شديدا ، فلما خلوا الى أنفسهم ، ورأوا عجلا جسدا من الذهب لا حياة فيه وله خوار من أثر فعل الريح لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا اليه وتهافتوا عليه حين قال لهم السامرى : « هذا الهكم واله موسى فنسى » أى نسى موسى عليه السلام أن يطلبه هنا وذهب يطلبه عند الطور . وقد أعلم الله نبيه موسى بأن قومه قد فتنوا من بعده وأضلهم السامرى قال تعالى « قال نانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى »(١) ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا والأسف من صيغ المبالغة تدل على شدة الغضب ، وقيل هو الحزين ، وقد عبر عن هذا الغضب الشديد بالقول والفعل يبدو فى قوله لقومه : بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم » ومعلوم أن الخلافة انما تكون من بعده ، وانما ذكرت « من بعدى » عقب خلفتمونى للتذكير بالبون الشاسع بين حال الخلف وحال المخلوف عنه أى من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله ونفى الشركاء عنه واخلاص العبادة له

(١) سورة طه : ٨٥ .

وتصوير لفظاعة ما خلفوه به أى بعد ما سمعتم منى التحذير من الاشراك ، وزجركم عن تقليد المشركين حين قلتم : أجعل لنا الها كما لهم آلهة ، فيكون قيد « من بعدى » للكشف وتصوير الحالة وتهويلها كقوله تعالى « فخر عليهم السقف من فوقهم »(١)

وأما الفعل الحركى الذى يدل دلالة بينة على شدة الغضب والحزن الذى ألم به عليه السلام هو ما فعله من القاء الألواح وطرحها من يده لما لحقه من فرط الدهش وشدة الغضب والضجر عند استماعه حديث العجل غضبا لله وحمية لدينه ، وكان فى نفسه حديدا شديد الغضب فالقاء الألواح من يده بمعنى رميها الى الأرض اظهار لدى الغضب الذى استولى على نفسه كما يفعل المرء حين يفور دمه من شدة الغضب فانه يلقى ما بيده ، وكان الله قد أخبره بفتنة قومه وضلالهم على وجه الاجمال ولكنه عندما رجع الى قومه وعلم بتفصيل ضلالهم بل شاهده عيانا كان ذلك هو الذى أغضبه غضبا شديدا فليس الخبر كالمعاينة ٠

وبعد القاء الألواح أخذ بشعر راس أخيه يجره اليه من ذؤابته ولحيته ، وذلك أيضا ترجمة لشدة هذا الجرم الشنيع الذى صدر من قومه لاسيما فيما يتعلق بأمر العقيدة حيث انتكسوا عن العقيدة الصحيحة من توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، فهذا هو الذى استفزه وذهب بفطنته وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية ، والنقلة بعيدة وقد ظن موسى عليه السلام أن أخاه هارون قد قصر فى أمر الخلافة ففعل به ما فعل قبل أن يبين هارون له عذره ٠

---

(١) سورة النحل من الآية ٢٦ ٠

وهذا العذر قد بينه هارون فى تلطف ولين فيستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه وأنه لم يقصر فى نصح القوم ومحاولة هدايتهم فيقول فى أسلوب هادىء لين رقيق : « قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » « ابن أم » بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة،وبهذا الأسلوب اللين استطاع هارون أن يستل الغضب من نفس أخيه موسى — عليه السلام — «وانما أضافه الى الأم اشارة الى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى الى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها (١) .

حركة لوى الرؤوس :

فى قوله تعالى : « واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» (٢) نزلت هذه الآية فى شأن المنافقين عندما كشف الله عن ضمائرهم وما تنطوى عليه نفوسهم من الكذب والحقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين فافتضح أمرهم بالنفاق مشى اليهم قوم من عشيرتهم وطلبوا منهم أن يتوبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النفاق ويطلبوا منه أن يستغفر لهم فكان ردهم على ذلك بالصد والاعراض والاستكبار ، ولم يكتفوا بذلك تصريحا بل أكدوه بحركة لوى الرؤوس المكنى بها عن

---

(١) الكشاف ١١٩/٢ .
(٢) سورة المنافقون آية ٥ .

الاعراض والاستكبار مع الاستهزاء بما قيل وعدم المبالاة به فحكاية هذه الحركة المشفوعة بالقول دلالة على الاعراض والاستكبار نفهم منها مدى ابائهم واعراضهم عن الاسلام والانصياع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كان الصدود منهم متجدد وحادث عبر عنه بالمضارع الدال على هذا المعنى ، ولما كان الاستكبار أمر مركوز فى نفوسهم فهو دائم فيهم لا ينقطع عبر عنه باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستمرار ٠

حركة ثنى الصدور واستغشاء الثياب :

فى قوله تعالى : « ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون»(١) المراد بثنى الصدور فى اللغة : انحناءها وانعطافها على ما بداخلها ، قال الفراء نزلت فى بعض من كان يلقى النبى صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى له على العداوة والبغض ، وعلى هذا المعنى يكون المراد من انثناء الصدور اخفاء ما فيها بطريق الكناية لأنه يلزم من انثنائها بمعنى انعطافها وانحنائها على ما فيها اخفاء ما فيها من العداوة والبغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ليستخفوا منه » أى لأنهم يريدون بذلك اخفاء هذه العداوة والبغض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،والمراد من استغشاء الثياب : تغطيتها لهم فى الليل عند النوم عند ذلك يسرون العداوة والبغض فلا يراهم أحد ولا يسمعهم بدليل ما ورد من أن طائفة من المنافقين قالوا اذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشنا ثيابنا ، وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله

---

(١) هود آية ٥ ٠

عليه وسلم فكيف يعلم بنا فأنزل الله تعالى : « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

ويقول الزمخشرى : « يثنون صدورهم » : يزورون عن الحق وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء : استقبله بصدره، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه(١) وعلى هذا التفسير يكون ثنى الصدور كناية عن الميل عن الحق والانحراف عنه ، يريدون بذلك الاستخفاء من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازوارهم أى ميلهم عن الحق فى خفية وقد يكون ثنى الصدور واستغشاء الثياب على الحقيقة فقد روى أن بعض المنافقين كان اذا مر بالنبى صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره أى انحنى بظهره وانثنى بصدره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لكيلا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فيدعوه الى الايمان ، وقيل : ان قوما من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء فبين الله تعالى أن التنسك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد وأظهروه من قول وعمل . وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يساره فى الطعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى(٢) .

ونلاحظ فى هذه الآية تكرار أداة التنبيه والتوكيد بان لاقتضاء المقام اياه اذ هو فى مقام كشف ما بداخل نفوس المنافقين من نيات خبيثة ، وعداوة يسرونها يتوهمون أنها تخفى على الله تعالى ، فأكد الله تعالى فعلهم هذا ردا على زعمهم الباطل من خفاء ذلك على الله تعالى ، وفى هذا التكرار أيضا

(١) الكشاف ٢/٢٥٨ .
(٢) تفسير القرطبى ٥/٣٣٣٤ .

دلالة على الترقي من حالة الى حالة أخرى أعظم منها استجهالا لهم وبيان معنى الترقى فى الآية هو أن الله تعالى أراد أن يبين موقفين من مواقف العناد والاستكبار من المشركين حين يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاسلام .

الأول : أنهم اذا رأوا رسول الله يعرضون عنه وينحرفون بباطلهم معتقدين بذلك أنهم يتمكنون من اخفاء أمرهم عن الله تعالى فيشتغلون بذمه عليه السلام .

والثانى : وهو أكثر جهالة وأشد استكبارا لأن فيه مواجهة صريحة من العناد والاستكبار ، وهو أنهم يستغشون ثيابهم لئلا يروا رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولئلا يسمعوا كلامه عندما يرونه مقبلا عليهم ، لأن من عادته – صلى الله عليه وسلم – اذا رأى الكفار دعاهم الى الاسلام وأسمعهم كلام الله تعالى .

حركة ثنى العطف :

فى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله »(١) عطف الرجل : منكبه وعطفه : جانباه من لدن رأسه الى وركه والجمع أعطاف ، وثانى عطفه حال من الفاعل وهو الضمير المستتر فى قوله تعالى : «ومن الناس من يجادل فى الله ..الآية» وقيل : معنى ثنى العطف : لوى العنق ، وعلى هذا يكون الكافر فى وقت المجادلة لاويا عنقه تكبرا واعراضا ، فحركة ثنى العطف : كناية عن الاعراض والتكبر أى هو معرض عن الحق فى جداله ، ومول عن النظر فى كلامه ، « فالتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس صورة فيها الكبر المتعجرف ثانى عطفه

---

(١) الحج ٨ ، ٩ .

مائلا مزورا بجنبـه فهو لا يسـتند الى حق فيعرض عن هـذا بالعجرفة والكبر ليضل عن سبيل الله فلا يكتفى بضلال نفسه بل يضل غيره بحمله على الضلال »(١) ·

« حـركة الجنب » :

قال تعـالى : « واذا أنعمنـا على الانسـان أعرض ونأى بجانبه»(٢)أى اذا أنعم الله على الانسان بالصحة والسعة أعرض عن ذكر الله كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه لأن النعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الانسان واهبهـا فيحمد ويشـكر ، « ونأى بجانبه » تأكيد للاعراض ، لأن الاعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهـه والنأى بالجـانب أن يلوى عنه عطفـه ويوليه ظهره(٣) وفيه ترق فى الاعراض اذ أن النأى بالجانب يحمل معنى التباعد والاسـتكبار وهنا فى آية الاسراء يأتى المقـابل « واذا مسه الشر كان يؤوسـا » ففى مجال النعمة اسـند الله الفعل الى نفسه وفى جانب الشر لم يسـنده تعالى الى نفسـه ، وهذه هى الطريقة المعهودة فى القرآن ، وهى أن أفعال الاحسان والرحمة والجود تضاف الى الله سبحانه وتعـالى فيذكر فاعلهـا منسوبة اليه ، ولا يبنى الفعـل معهـا للمفعول ، فاذا جىء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفـاعل ، وبنى الفعل معها للمفعول أدبا فى الخطاب واضـافته الى الله أشرف قسـمى أفعاله كما فى هـذه الآية وفى قوله تعـالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » فانه سبحانه ذكر النعمة

---

(١) فى ظلال القرآن ٤/٢٤٢١ ·

(٢) الاسراء ٨٣ ·

(٣) الكشاف ٢/٤٦٤ ·

وأضـافها اليه ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حـذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال : « المغضوب عليهم » ونظيره قول ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضـت فهو يشفين»(١) فنسب الخلق والهداية والاحسان بالطعام والسقى الى الله تعـالى ، ولمـا جاء الى ذكـر المرض قال : واذا مرضت ولم يقل : أمرضـنى ، وقال « فهو يشـفين » ، وغير ذلك من الآيـات(٢) .

وفى سورة فصـلت : « واذا أنعمنا على الانسـان أعرض ونأى بجانبه،واذا مسه الشر فذو دعاء عريض(٣) ، والآيتان تكشف عن طبيعة الانسان فعندما يصيبه الشر يجزع الى أن يصل الى درجة اليأس والقنوط بل شدته فييأس من روح الله « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وقد لا ينتابه اليأس فيلجأ الى الله بالدعاء ويلح فى الدعاء والتضرع والابتهال ولذلك وصف الدعاء بأنه عريض وهو مجاز فقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه لأن الغرض من صفة الاجرام ، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

وهذا الأسـلوب الخبرى يعد نقدا لسـلوك الانسـان فى الحالتين وتعجب من شأنه فهو يلح فى الدعاء عندما يمسه الشر لم يتذكر الاقبال على دعاء ربه الا فى هذه الحالة ، وكان حريا به ألا يغفل عن ذلك فى حال النعمة فيشكر ربه ويدعو بدوامها، لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة مس الضر .

---

(١) الشعراء ٧٨ ـ ٨٠ .

(٢) انظر : بدائع الفوائد لابن القيم ٢/١٩ .

(٣) سورة فصلت آية ٥١ .

ونلاحظ أن فى قوله تعالى « ونأى بجانبه » كناية اما عن الاعراض واما عن الاستكبار ، فاذا كانت كناية عن الاعراض كان قوله : ونأى بجانبه تأكيدا للاعراض ، لأن الاعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه ، ومن يلوى عن الشىء عطفه ويوليه ظهره فقد حاول الاعراض عنه ودخلت الواو بين المؤكد والمؤكد ، لأنه ليس بتأكيد صناعى . اذا كان قوله « ونأى بجانبه » كناية عن الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين كان تكميلا لمعنى الاعراض لاختلاف مفهوميهما ، وعلى هذا يكونون قد جمعوا بين معنى الاعراض والاستكبار (١) .

وفى قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا »(٢) نجد المشهد الحركى المصور لحال القائمين بالليل يتركون فرشهم الدافئة لعبادة الله خوفا من عذابه وطمعا فى ثوابه انه مشهد يصور هيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية فى لمحة واحدة وفى تعبير عجيب يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب ، فلم يلجأ القرآن الى التعبير المباشر قائلا : انهم يقومون الليل ، وانما عبر عن هذا القيام بطريقة أخرى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » فيرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب الى الرقاد والراحة والتلذذ بالمنام ، ولكن هذه الجنوب لا تستجيب ، وان كانت تبذل جهدا فى مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة لأن النفس تميل اليها لاسيما فى وقت اشتداد البرد ، ولكن الايمان المتمكن فى القلب يغلب هوى

---

(١) تحفة الأشراف للفاضل اليمنى دراسة وتحقيق للدكتور /عبدالله محمد سليمان هنداوى .

(٢) السجدة : ١٦ .

النفس ويمسك بزمامها فيصرفها عن مشتهاها الى الوقوف فى الحضرة الالهية والاشتغال بالعبادة والذكر والدعاء لأجل خشية الله تعالى خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته وخوفا من غضبه وطمعا فى رضاه ٠

وفى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم »(١) ٠

المراد من الذكر هنا الذكر اللسانى أو الذكر القلبى وهو التفكر وأراد من قوله : « قيــاما وقعودا وعلى جنوبهم » عموم الأحوال أى اباحة الذكر فى الأحوال كلها وهى ما تعارف عليه البشر من الشغل المستلزم للقيام أو القعود والراحة المستلزمة للقعود وقصــد النوم فالذكــر يجب أن يصــدر من المؤمن فى أوقاته وحالاته كلها ، وقد يراد من ذلك أحــوال المصــلين من قادر وعاجز وشديد العجز(١) ٠ وهنا ذكر القيام أولا والقعود ثانيا ، وعلى الجنوب ثالثا وفى أحوال دعاء الانسان ربه عند مس الضر عكس هذا حيث ذكر الجنب أولا وذكر القعود ثانيا والقيام ثالثا فى قوله تعالى : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما »(٢) وفى آية آل عمران قال : وعلى جنوبهم وفى آية يونس قال : لجنبه باللام دون على فما السر فى ذلك ؟

والجــواب عن سر ترتيب الأحوال فى ســورة آل عمران وعكســه فى ســورة يونس هو أن ذكر الله فى وقت الشــغل

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٢ ٠
(٢) التحرير والتنوير

وكسب العيش يكون أولى وأهم لأن المؤمن فى هذا الوقت يؤدى عمله اليومى فيجب أن يكون الله على ذكر منه حتى يتقن هذا العمل ويختلط بغيره من الناس فيجب أن يحسن معاملتهم بحيث يظل طوال يومه ذاكرا الله تعالى بقلبه وبلسانه فى كل عمل يؤديه وفى كل خطوة يخطوها ، وعندما يفرغ من عمله اليومى ويركن الى الراحة يجب أيضا أن يذكر الله تعالى فى حال القعود ، وفى حال الاستعداد للنوم عندما ينام على جنبه بحيث لا يخلو وقت من الأوقات عن ذكر الله تعالى . وفى آية يونس قدم الجنب على القعود والقيام باعتبار حال المضرورين فمنهم من هم أشد حالا وهم أصحاب الفرش ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ومنهم المستطيع القيام وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء فتفصيل أحوال الانسان بحسب حال كل فرد أصابه الضر فهو يدعو الله فى حالاته كلها أن أصابه ضر شديد ألزمه الفراش يدعوه لدفع الضر نائما على جنبه وان أصابه ضر أقل من سابقه ألزمه القعود يدعوه أيضا لكشف هذا الضر ، وان لم يصبه ضر فى نفسه فكان قادرا على القيام بل أصيب فى ماله يدعوه أيضا ، ولا يفتر عن الدعاء فى أحواله كلها حتى يكشف الله عنه الضر بدليل قوله تعالى فى آية أخرى « واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » فالمقام هنا يستلزم تعميم أحوال المضرور بالدعاء . وقد يكون التفصيل أى تفصيل أحوال .

الاعراض والنأى بالجانب :

فى قوله تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى

بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض »(١) هذه الآية تصف طغيـان النفس الانسـانية فاذا أصابته السراء طغى وتكبر ونسي شكر ربه وشـغل بلذاته واذا أصابته الضراء لم يصطبر ويتخاذل ويصغر ويتضـاءل ويتضرع ويلح فى الدعاء لكشف الضر عنه • والاعراض : الانصراف عن شيء وهو مستعار هنا للغفلة عن الشكر أى شكر المنعم ، وقد حذف متعلق « أعرض » لدلالة السياق عليه وليكون فى الحذف ثراء فى المعنى وايجاز فى اللفظ ، لأنه لو ذكر المتعلق لقيد بما ذكر ، أما تركه بدون ذكر فلتذهب فيه النفس كل مذهب بأن يكون المعنى أعرض عن دعائنا أو أعرض عن شكرنا أو عبادتنا •• الخ فالحذف يفهم منه عموم الاعراض • والنأى : البعد وهو هنا مسـتعار لعدم التفكـر فى المنعم عليه فشـبه عدم اشتغاله بذلك بالبعـد • والجانب للانسان منتهى جسمه من احدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره ، ويسمى الشق والعطف بكسر العين والمعنى أبعد جانبه كناية عن ابعاد نفسـه أى ولى معرضـا غير ملتفت بوجهـه الى الشيء الذى ابتعـد هو عنه(٢) • وذكر الزمخشرى وجهين فى معنى « النأى بالجانب » •

أحدهما : أن يوضع جانبه موضع نفسه كما فى قوله تعالى: « على ما فرطت فى جنب الله » ومنه قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتـان » ومنه قول الكاتب حضرة فلان ومجلسيـه ، وكتبت الى جهته والى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قال : نأى بنفسه وذهبت به الخيلاء كل مذهب وعصفت به •

---

(١) سورة فصلت الآية ٥١ •

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/١٤ •

وثانيهما : أن يراد بجانبه : عطفه ، ويكون نأيه بجانبه عبارة عن انحرافه وازوراره كما قالوا ثنى عطفه ، وتولى بركنه(١) . وعلى الوجه الثانى يكون النأى بالجانب كناية عن التكبر والخيلاء امعانا فى الاعراض عن الله ونسيان شكره ، فالتعبير بالنأى بالجانب للدلالة على عدم الالتفات الى شكر المنعم وبعده عن عبادته وتوجهه اليه بالدعاء . وقد يكون نأى الانسان بجانبه يحمل معنى بعده عن الفقراء والمساكين وغيرهما من مصارف الزكاة فلا يعطى كل ذى حق حقه ، وانما ينشغل بأغراضه الدنيوية ليكتسب وجاهة عند الناس يدل على هذا ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »(٢) .

يقول الزمخشرى « فان قلت : لم خصت هذه الأعضاء بالذكر ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها فى سبيل الله الا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل ويحيون بالاكرام ويبجلون ويحتشمون ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم . وذكر الزمخشرى وجها آخر فى سر اختصاص هذه الأعضاء بالذكر . فيقول : وقيل : لأنهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا ، واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا

---

(١) الكشاف ٣/٤٥٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٥ .

بأركانهم وولوه ظهــورهم »(١) • وهــذا هو سر ترتيب هــذه الأعضاء فى النظم ليكون الجزاء من جنس العمل •

(حركة الغمز والهمز واللمز) :

قال تعــالى : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنــوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون »(٢) هذا من جملة القول الذى يقال يوم القيامة للفجــار فهو حكاية كون مضى ، وكذلك معطوفاته من قوله : « واذا مروا » ، « واذا انقلبوا » ، « واذا رأوهم » فدل السياق على أن هذا الكلام حكاية قول ينادى به يوم القيامة من حضرة القدس على رؤوس الأشهاد •

حركة دوران الأعين والسلق باللسان :

فى قوله تعــالى : « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليــه من الموت فاذا ذهب الخــوف سلقوكم بألسنة حداد »(٣) يصور الله عز وجل — لنا صــورة واضحة المعالم متحركة الجوارح وهى فى الوقت ذاته صــورة مضحكة تثير السـخرية من هذا الصنف الجبان من المنــافقين ، تصــورهم فى حالتين متعــاقبتين متقــابلتين فى حالة الخوف والفزع فى ساعة الشدة وفى حالة الأمن والرخاء فالحالة الأولى يرسم لنا المولى — عز وجل — صورة نفسية مبدعة لدخائل هؤلاء المنــافقين ، ويبرزها لنا فى مشــهد حركى حسى يبــدو على جوارحهم ، وهى صورة ناطقة لما تضــمره نفوسهم وهى وان

---

(١) الكشاف ٢/١٨٨ •
(٢) المطففين ٢٩ ، ٣٠ •
(٣) سورة الأحزاب آية : ١٩ •

لم تنطق بكلام الا أن ما توحيه فى النفس أبلغ وأكثر تعبيرا وأوسع دلالة من أي كلام فيصور القرآن ما يعترى المنافقين من مشاعر الخوف والرعب والشعور بالخطر حين يواجههم موقف يمتحنون فيه • فالمفروض أنهم يحاولون خديعة المسلمين فيظهرون لهم أنهم لا يقلون عن أى مسلم اسلاما وعبادة وتضحية فى سبيل الاسلام ، وقد يتمكنون من اجادة هذا المظهر فى كل موقف يشاركون فيه المسلمين ، ولكن موقفا معينا يضعهم أمام عقبة صلبة لا تقوى نفوسهم عندها على استمرار التمثيل وخديعة المسلمين ، هذا الموقف هو الشعور بالخطر عند ذلك تجتاحهم مشاعر عارمة من الخوف والرعب والفزع يبرزها لنا القرآن فى صورة تنطق بها أوصالهم وجوارحهم بالجبن والخور ، وقد يكون هناك مجال واسع لوصف مشاعرهم هذه، وان ذلك ليحتاج الى كلام كثير ووصف مستفيض ولكن القرآن يكتفى عن هذا الكلام الكثير والوصف الطويل بصورة يرسمها لهم وهم يعانون هذه المشاعر ، وتبدو الصورة فى مظهرها بسيطة ، ولكنها تؤدى ما لا يؤديه كلام طويل ، وتوحى للخيال والنفس بمعان لا يبرزها وصف مهما يطل فالقرآن يصوغ ذلك كله فى جملة واحدة معبرة هى : « تدور أعينهم » ، وتصورنا لشخص تدور عيناه بهذه الصورة فى موقف الخوف يغنينا عن أي كلام ويفتح لنفوسنا مجالا فسيحا لتتصور ما يدور فى دخيلة صاحب هاتين العينين ، فإن النفس يمكن أن تتخيل وراء هذه الصورة معاني أكثر مما تؤديه الألفاظ وهذا هو الإيجاز الذي يعرف بايجاز القصر ، ويزيد القرآن هذه الصورة الموجزة بيانا فيشبههم فى نظرتهم الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والى المؤمنين فى حالة دوران أعينهم وعدم استقرارها على حال

ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا « تدور أعينهم » لذهاب عقولهم فلا يستقيم النظر منهم الى جهة ، وانما أعينهم تدور فى كل الجهات ، وقيل : لشدة خوفهم تدور أعينهم فى كل الاتجاهات حذرا أن يأتيهم القتل من احداها أو من كل جهة ، وانظر الى دقة التعبير القرآنى فى ايثار الفعل المضارع « تدور » دلالة على تجدد الحدث واستمراره ، وأن هذه الحركة متجددة كلما تجدد الخوف والفزع ودقة النظم القرآنى تبدو أيضا فى الصورة التشبيهية ومدى ملاءمة طرفى التشبيه لتلك الحالة النفسية من الجبن والخور ، فان المنافق فى حالة الخوف جبان وضعيف يخشى ازهاق روحه فى أى وقت كما أن المغشى عليه من الموت فى هذه الحالة من الضعف يخشى مفارقة الروح لجسده فلا تستقر عينه على شىء وانما هو دائم النظر الى كل ما حوله .

والدليل على أن المراد من الخوف فى الآية هو الخوف من القتال هو ما صرح به القرآن فى موطن آخر — فان القرآن يفسر بعضه بعضا — فى قوله تعالى : « فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت »(١) فان المنافقين أضعف الناس احتمالا لمواجهة المواقف الصعبة أو الخطرة بحكم أنهم أضعف الناس ثباتا على أى شىء وأشدهم خوفا وجبنا كما مر فهم لا يملكون من القوة أو القدرة على الحركة فى أى عضو من أعضائه غير حركة عينيه ، فقد شلت حركتهم وحلت عزائمهم بحيث لا يبقى من

---

(١) سورة محمد : ٢٠ .

قدرتهم على الحركة والتعبير الا ما يبقى لدى المحتضر الذى يعانى المـوت ٠

وأما الحالة الثانية فهى على العكس من ذلك حينما يحسون بالأمن تبـدو فى أفواههم صـورة حركية يرسـمها اللسـان فيحاولون جاهدين أن يظهروا أنفسهم بمظهر القوة والشجاعة فبمقدار ما حدث لهم فى حالة الخوف والفزع من ضـعف وخور شديدين يحدث العكس لهم فى حال الأمن من القوة والشـجاعة ميلا الى تعويض نقصـهم من النـاحية النفسـية وذلك فى قوله تعالى : « فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » ٠ ومادة السلق تدور حول القوة والشدة فى الصوت والمعنى أنهم بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم فى الغنيمة أشد مخاصـمة وأبلغهـا يقولون : أعطنا فانا قد شهدنا معكم ، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا ووقت اليأس أجبن قوم وأخوفهم ٠ وسأل نافع عن قوله تعالى « سلقوكم بألسنة حداد » فقال ابن عباس : الطعن باللسان ٠ وشاهده قول الأعشى :

فيهم الخصب والسـماحة والنجـ ـدة فيهم والخاطب المسلاق

وهذا اللفظ « سلق » وحيد فى القرآن مادة وصـيغة أما وصف الألسنة بالحداد فوحيدة الصيغة وأما المـادة فقد جاءت فى القرآن حديد — وحدود — كما جاء الفعل « حاد » ماضـيا ومضارعا ٠٠ والمـادة أيضا تعطى معنى القوة والحدة والعنف ٠ وفى الحـديث : « ليس منا من سلق أو حلق » قال ابن الأثير : أى رفع صوته عند المصـيبة ، وأصل المـادة فى الاسـتعمال اللغوى هو السلق بالماء الحار وفى الآية من الاستعمال المجازى ٠

أى أن وقع هذه الألفاظ على مسامع المؤمنين كوقع المـاء الحار على الجسم ففى السلق دلالة على التجريح والطعن ومما يتصـل بحركة العـين ارتداد الطرف وهو ما يعـرف بغمض العين فى قوله تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك »(١) ان نبى الله سليمان عليه السلام أراد احضار عرش ملكة سبأ « بلقيس » قبل مجيئهـا مسـلمة مع قومها ليكون ذلك وسيلة لعرض مظاهر القـوة الخـارقة التى تؤيده لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها الى الايمان بالله والاذعان لدعوته ، وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه ، وكان يجلس للحكم والقضـاء من الصـبح الى الظهر فاستطول سليمان عليه السلام هذه الفترة واستبطأها كما يفهم من السياق فاذا الذى عنـده علم من الكتاب يعرض أن يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد اليه طرفه ، وارتداد الطرف حقيقته : رجوع تحديق العين من جهة منظورة تحول عنها لحظـة ، وعبر عنه بالارتداد ، لأنهم يعبرون عن النظـر بارسال الطرف وارسال النظر ، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك • ويقول الزمخشرى : ارتداد الطـرف هو تحـريك أجفانك اذا نظرت فوضع موضع النظر أى أن الجفن عبر به عن سرعة الأمر ، وقيل أراد به مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، وهو كما تقول : افعل كذا فى لحظة عين أو فى غمضة عين ، وأياما كان المعنى فهو دال على سرعة الاسـتجابة ، واحضـار عرشها على هذا النحو من كرامات الأولياء قيـل : هو آصف بن برخيا وهو من بنى اسرائيل ، وكان صديقا يحفظ اسم الله الأعظم الذى اذا سئل به أعطى ، واذا دعى به أجاب •

---

(١) سـورة النمـل آية ٤٠

حركة الفم بالتبسم والضحك :

وردت في قوله تعالى : « فتبسم ضاحكا من قولها » أي من قول النملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون»(١) تبسم سليمان — عليه السلام — من قول النملة تبسم تعجب • ويرى صاحب الكشاف أن التبسم قد وصل الى الضحك حيث قال : « ومعنى « تبسم ضاحكا » تبسم شارعا في الضحك وآخذا فيه وعلى هذا تكون كلمة « ضاحكا » حالا مؤسسة ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن التبسم أضعف حالات الضحك ، فقوله « ضاحكا » حال مؤكدة لتبسم وضحك الأنبياء التبسم كما ورد في صفة ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما يقرب من التبسم مثل بدو النواجذ كما ورد فى بعض صفات ضحكه • وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء ، وفى الحديث « كثرة الضحك تميت القلب »(٢) • وفى قول ابن عاشور « أو ما يقرب من التبسم مثل بدو النواجذ » نظر ، لأنه كيف تبدو النواجذ ويكون قريبا من التبسم ان بدو النواجذ انما تكون فى أقصى مراحل التبسم والا ما فائدة الغاية المفهومة من « حتى » فى قول الرواة : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تعجبه من أمر « ضحك حتى بدت نواجذه » فاذا كان الضحك يطلق على التبسم فان بدو النواجذ يكون فى الغاية منه • وتعجب سليمان عليه السلام من قول النملة لما يدل عليه قولها على لطافة جسمها وصغر حجمها من أمور كثيرة منها : أنها عرفت اسمه ، ودل قولها : وهم لا يشعرون على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى

(١) النمل ١٨ •

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٣/١٩ •

شـهرة حاله وحالهم فى باب التقـوى ، وذلك قولها : « وهم لا يشعرون » تعنى أنهم لو شـعروا لم يفعلوا ، فهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة ، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل لكل مخلوق مهما كان حجمه • وتعجب أيضا مما دل عليـه قولهـا من شدة فطنتها ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مسـاكنهم المختصة بهم فالاضافة فى « مسـاكنكم » للاختصـاص ، فقد عرفت هى والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم(١) •وقد استفتحت النملة خطابها بالنداء الذى يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس ارادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسـكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشـية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبى الله وجنـوده بأنهـم لا يشـعرون بذلك • فجمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون ، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخـذوا حذرهم ويدخلوا مسـاكنهم وتعجب أيضا نبى الله سـليمان وتبسـم سرورا وفرحا بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من ادراكه بسمعه ما همس به بعض الحـكل الذى هو مثل فى الصغر والقلة ومن احاطته بمعناه لذلك كله تبسم نبى الله ضاحكا من قولها ، وانه لموضع حقيق بالتعجب والتبسـم ، ولذلك عقبه بالدعاء المشـتمل على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك وعـلى استيفائه لزيادة العمـل الصـالح والتقـوى(٢) •

---

(١) انظر الكشاف ١٤٢/٣ •

(٢) انظر : بدائع التفسير لابن القيم ٣٣٥/٣ •

حركة الفم بالنفخ فى النـور لابطال أثره :

فى قوله تعـالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههـم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »(١) سياق الآية يشير بوضوح الى أن الذين يريدون أن يطفئوا نورالله بأفواههم هم من أهل الكتاب بدليل الآية السابقة عليها وهى قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله» فحرب أهل الكتاب وخصوصا اليهود للاسلام كانت حربا موجهة الى الدين نفسه بالتشكيك فيه والسخرية منه ، وانكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك كان رد الله عليهم « والله متم نوره ولو كره الكافرون » . وهم انما يفعلون ذلك حسدا منهم وحقدا على انتشار الاسلام وظهوره قال تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسـدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .. »(٢) والاطفاء ابطال الاسراج وازالة النور بنفخ عليه أو هبوب رياح . والكلام على طريقة التمثيل مثل حالهم فى محاولة تكذيب النبى صـلى الله عليه وسلم وصد النـاس عن اتباع الاسـلام واعانة المناوئين للاسلام بالقول والارجاف،والتحريض على المقاومة ، والانضمام الى صفوف الأعداء فى الحروب ، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة بحال من يحاول اطفاء نور بنفـخ فمه عليه ، فهـذا الكلام على طريق الاستعارة التمثيلية التى شبهت فيها هيئةبهيئة ثم حذفت الهيئة الدالة على المشبه واستعيرت لها الهيئة الدالة على المشبه به وهو ارادتهم اطفاء نور الله بأفواههم .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٣٢ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

وفى ذكر الأفواه اشارة الى أن حروبهم الموجهة ضد الاسلام ورسوله انما هى حروب كلامية بالتكذيب والارجاف والتحريض على مقاومة الاسلام وتشويه تعاليمه ، ومحاولة تثبيط المسلمين عن دينهم وتشكيكهم فيه حتى يرتدوا ، فقد روى أن فنحاص ابن عازورا وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ؟ ولو كنتم على حق ما هزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد ، قال : فانى قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت ، فقالت اليهود : أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيرا وأفلحتما .

فهذا النور الذى يشع من حولهم ويملأ الأرجاء هم يرونه نارا محرقة يخشون أن تحرقهم وأن ينتشر حريقها فيدمرهم ويدمر كل شىء معهم فأسرعوا يحاولون اطفاء هذا المصدر كمن يحاول أن يطفى نارا توشك أن تحيط به .

حركة الخد :

فى قوله تعالى : «ولا تصعر خدك للناس»(١) نجد النهى عن التكبر واعجاب المرء بنفسه مصورا بصورة حركية لبعض أعضاء الجسم وهى صورة من يعرض بوجهه تكبرا فيميل بخده المقابل للناس احتقارا لهم ويلزم منه أمرهم بالتواضع أى أقبل

---

(١) لقمان ١٨ .

عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، واذا حدثك أصغرهم فاصغ اليه حتى يكمل حديثه ولا تعرض عنه أثناء الحديث بوجهك . فالرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الاعراض عن الناس فقال : « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » فالتدابر : الاعراض وترك الكلام والسلام ونحوه وانما قيل : للاعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك ، وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك ، وواجهته لتسره ويسرك ولكن المولى عز وجل آثر النهى عن الميل بالخد دون الاعراض بالتدابر لنكتة لطيفة ، وهى أن النهى عن مجرد الميل بالخد عن الناس يلزم منه النهى عن الاعراض عنهم وتوليتهم أدبارهم من باب أولى ، لأن النهى عن الأدنى يلزم منه نفى الأعلى من غير عكس فقد سلك القرآن الطريق الأبلغ فى النهى عن التكبر على منوال قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف » من باب القياس بالأدنى على الأعلى ، فدلالة المنع من التأفيف تدل على المنع من الضرب من باب أولى .

والصعر : قيل : ميل فى الوجه ، وقيل الصعر : الميل فى الخد خاصة ، وقيل : هو ميل فى العنق وانقلاب فى الوجه الى أحد الشقين ، وقد صعر خده وصاعره أماله من الكبر قال المتلمس :

وكنا اذ الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

وأصل الصعر هو داء يأخذ البعير فيلوى منه عنقه ويميله، وفى الحديث « كل صعار ملعون » قال أبو اسحاق معنى : ولا تصعر خدك للناس : لا تعرض عن الناس تكبرا . ومجازه :

لا تلزم خدك الصعر ، والتصعير امالة الخد عن النظر الى الناس تهاونا من كبر كأنه معرض(١) ٠

وعلى هذا فاذا كان اللفظ مأخوذا فى الأصل من الصعر الذى هو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه يكون التعبير فى الآية من المجاز أى أن الله تعالى شبه الرجل المتكبر بالبعير الذى يصيبه داء فيلوى منه عنقه ثم حذف المشبه به وهو البعير ودل عليه بلازمه وهو الصعر على سبيل الاستعارة المكنية ٠ والأسلوب القرآنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر وهى حركة الكبر والازورار وامالة الخد للناس فى تعال واستكبار ومن ثم تظل هذه الصورة الحركية المنفرة ماثلة فى ذهن الانسان لا تفارقه وكأنها مشاهدة أمام عينيه تكون زجرا له وردعا عن فعل كل ما يؤدى الى الكبر ، وايثار صيغة « تصعر » على غيرها لما تشير اليه من افادة معنى التكلف أى تكلف اظهار الصعر ، وهو تمثيل للاحتقار لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف فى غالب الأحوال(٢) ٠

وتشديد العين فى « تصعر » فيه دلالة على قوة هذا الحدث والاصرار عليه ، ومؤدى هذا أن العيب ليس فى الهيئة نفسها فقط ، ولكن فى تكلفها واصطناعها والاصرار عليها ، وهذا التكلف يؤدى الى اصابة صاحبه بالأمراض النفسية لأن التكلف فى الظهور دليل على الشعور بالنقص فى هذا الشىء ، ولو كان يشعر بالثقة فى نفسه فى صفة ما كان فى حاجة الى المبالغة

---

(١) اللسان مادة « صعر » ٠

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٦٦/٢١ ٠

فى اثباتها لنفسه ، لأن نفسه مليئة بالشعور بها فليست فى حاجة لأن تعلن عنها بتكلف .

حركة الرجلين بالمشى فى الأرض مرحا :

فى قوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا » وهذا نهى ثان بعد النهى الأول عن تصغير الخد ، وكلاهما نهى عن التكبر والتبختر ، والمرح : فرط النشاط من فرح وازدهاء ، ويظهر ذلك فى المشى تبخترا واختيالا فيها قلة مبالاة بالناس ، وهى حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق ، وهو تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفس فى مشية الخيلاء فالجملة الأولى نهى عن التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له ، ولذلك علقه بالناس « ولا تصعر خدك للناس » والجملة الثانية نهى عن التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه(١) ، وعلى أية حال فهما متلازمان ، وقد ينفك أحدهما عن الآخر ، ولعل هذا هو المراد بدليل عطف الجملة الثانية على الأولى والعطف يقتضى المغايرة ، وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال تعالى « أقم الصلاة ... » ثم قال تعالى : « وأمر بالمعروف » . وفى النهى قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال : « ولا تصعر خدك » ثم قال تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا » لأن فى طرف الاثبات من لا يكون كاملا لا يمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال ، وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا ، لأنه لا يتكبر على الغير الا عند اعتقاده أنه أكبر منه بوجه ، وأما من يكون متبخترا فى نفسه قد لا يتكبر ويتوهم أنه يتواضع للناس

---

(١) التفسير الكبير ١٢/ ٥١٠ .

فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر ، لأنه لو قد نفى التبختر للزم منه نفى التكبر فلا يحتاج الى النهى عنه(١) .

ويلاحظ أنه قد تقدم النهى عن المشى فى الأرض مرحا فى سورة الاسراء فى قوله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » ، وهذه الجملة « انك لن تخرق الأرض ... » مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن النهى بتوجيه خطاب ثان فى هذا المعنى على سبيل التهكم أى انك أيها الماشى مخلوق ضعيف لا تخرق بمشيك أديم الأرض ولا تبلغ بتطاولك فى مشيك طول الجبال فما الذى يغريك بهذه المشية ؟ والمقصود من التهكم : التشنيع بهذا الفعل والتغليظ فيه لأن الكبرياء لا يكون الا لله عز وجل فلا ينبغى لأحد مهما أوتى من قوة أو جاه أو سلطان أن ينازع الله تعالى فى صفة من صفاته فالتواضع أدب مع الله أولا وأدب مع الناس ثانيا .

فان قيل : ما موقع « فى الأرض » فى الآيتين بعد : « لا تمش » مع أن المشى لا يكون الا على الأرض ؟ والجواب هو أن قوله « فى الأرض » فيه اشارة الى أن المشى فى مكان يمشى فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم فيه عظة وعبرة للماشى مرحا أنه مساو لسائر الناس لأنهم جميعا خلقوا من الأرض فى مبدأ خلقهم واليها يصيرون فى نهاية حياتهم فيكون ذلك أدعى لفظا من النفوس اذا تذكروا مصدر خلقهم ونهاية حياتهم عند الممات ، ولعل هذا يفسر لنا السر فى ايثار حرف الجر « فى » دون «على» ويتضمن هذا التعبير بيان للمشية المعتدلة القاصدة

---

(١) التفسير الكبير ١٢/٥١١ .

والقرآن لا يكتفى بدلالة التضمن أو اللزوم ، وانما لابد من النص على بيان آداب المشى فى قوله تعالى : « واقصد فى مشيك » أى كن متوسطا فى مشيك ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلا وسطا ، قال صلى الله عليه وسلم « سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن » ٠

والأمر بالقصد فى المشى يتبعه أو يلزمه القصد والاعتدال فى السلوك والمعاملات بأن تكون أخلاقه وسلوكياته على هذا النحو من التوسط وقد تكرر فى القرآن النهى عن مشية المتكبر المختال والأمر بالتوسط والاعتدال ومدح عباد الرحمن فجعل من أولى صفاتهم التى بها يستحقون الجنة المشى على الأرض هونا قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » ٠٠ ثم قال فى نهاية تعداد صفاتهم « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا »(١) والمقام يستدعى هذا التكرار بالنهى والأمر والمدح والثناء ، لأن الأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى قبل الاسلام كانت تخلق فواصل نفسية بين بعض أفراد المجتمع وبين البعض الآخر ، حتى انه كان من الأسباب التى تمنع بعض أصحاب الجاه والسلطان من الدخول فى الاسلام نفورهم وأنفتهم من أن يصبحوا فى مستوى غيرهم من فقراء المسلمين كما يروى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم — رضوان الله عليهم — جلسنا اليك

(١) سورة الفرقن ٦٣ — ٧٥ ٠

وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا اجعل لنا مجلسا واجعل لهم مجلسا آخر ، وكان هـذا الوضع سائدا فى المجتمع من عاداته وتقاليده .

قال عمر - رضى الله عنه - طمعا فى ايمانهم - مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم : « لو فعلت حتى تنظر الى ما يصيرون ، ولكن القرآن نهى الرسـول نهيا شديدا قاطعـا عن أن يوافقهم فيفرط بذلك فى مبادىء الاسلام(١) .

قال تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .. »(٢) ، وقد كان التكبر والاختيال للسادة وأصحاب الجاه وضعا يقره المجتمع ، وكانت له أمارات سائدة تظهر على المرء منهم فى ملبسه وفى حركة مشيه فكان الفـرد منهم يصطنع لنفسه مظهرا خاصا يتميز به عن عامة النـاس منه : اسبال الازار وطول الرداء ومنه : المشية الخاصة التى تنبىء عن الترفع عن عامة الناس والتعالى عليهم،وقد يكون لكل من هؤلاء طريقة خاصة فى هذه المشية،ولكنها جميعا تتخذ طابع التكلف والتصنع الذى يدل على أن لصاحبه ميزة عن غـيره فى المجتمع . ولم يكتف القرآن بالنهى المجرد عن التكبر والاختيال وانما يسخر منه ويصوره فى صورة حركية هى من المعـانى الأول ليفهم من ورائها المقصود بالنهى وهو ذم التكبر والخيلاء وهى من المعانى الثـانية . ونلاحظ أنه فى مقـام النهى عن

---

(١) انظر الكشاف ٢/٢١ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٢ .

التكبر فى آيتى الاسراء ولقمان آثر النظم الكريم حرف الجـر « فى » فى قوله « فى الأرض » وفى مقام المدح آثر حرف الجر « على » فى قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشـون على الأرض هونا » فما السر فى ذلك ؟ والجواب هو الاشـارة الى حركة المتكبرين حين يمشون على الأرض زهوا وخيلاء يضربون الأرض بأقدامهم أشرا وبطرا حتى كأن الواحد منهم يريد أن يخرق الأرض وتشق له ليسـير فى طريق متميز منفصـل عن سائر الناس ومع ذلك كأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفـع هامته الى السماء أما فى مقام المدح فقد وصفهم بأنهم يمشون على الأرض هينين متواضعين فى لين وسكينة ووقار، ولايضربون الأرض بأقدامهـم تكبرا وخيـلاء ، انه التخلق بآداب النفس العاليه وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من صفات عباد الرحمن على الضد من مشى أهل الجـاهلية الذى يتسـم بالشدة والعنف ومن هنـا كان التخلق بهذا الخلق مظهـرا من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن وكأن وصفهم أى وصف مشيتهم بالهون تناسب ماهية الرحمة بالاضافة الى أن فيه سلامة المارين من الصدام أو الأذى، وقرن وصفهم بالتواضع فى سمتهم وهو المشى عـلى الأرض هونا بوصف آخر يتـاسب التواضع وكراهيـة التطاول ، وهو متـاركة الذين يجهلـون عليهم فى الخطاب بالأذى والشـتم قال تعالى :« واذا خـاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

حـــركة التمطى :

مط الشيء يمطه مطا : مده ، ومط حاجبه مطا : مده في تكلمه ، ومط حاجبيه مطا مدهما تكبرا ، والتمطى : التمدد وأصـــله : يتمطط فقلبت الطــاء فيــه ياء كراهــة اجتماع الأمثال(١) . قال تعــالى : « فلا صــدق ولا صــلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله يتمطى »(٢) ذكر فى هذه الآية مايتعلق بأصول الدين وفروعه وما يتعلق بأمر دنياه ، فالذى يتعــلق بأصول الدين نفى أنه صــدق بالدين واثبات التــكذيب به ، والذى يتعلق بفروعه هــو أنه ما صلى ولكنه تــولى وأعرض والذى يتعلق بدنياه هو أنه ذهب الى أهــله يتمطى ويتبختــر ويختــال فى مشــيته .

وقيل : هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه ، وفى حــديث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اذا مشت أمتى المطيطــاء وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم»(٣) قال الأصمعى : المطيطى بالمــد والقصر : التبختــر ومد اليــدين فى المشى . والمعنيان متقاربان لأن التمطط بمعنى التمدد أى أنه يتمدد فى مشيته تبخترا ، ولا فرق بينهما الا فى المــادة اللغوية فان مادة المطا من « المطو » ومادة الثانى من المطط ، وقد ورد أن هــذه الآيات تعنى شخصا معينا بالذات قيل : هو أبو جهل « عمرو بن

---

(١) سورة القيامة ٣١ ــ ٣٣ .
(٢) اللسان : مادة : مطط .
(٣) التفسير الكبير .

هشام » ، وكان يجيء أحيانا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه القرآن ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ولايتأدب ولا يخشى ويؤذى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالقول، ويصد عن سبيل الله ثم يذهب مختالا بما يفعل فخورا بما ارتكب من الشر كأنما فعل شيئا يذكر ·

فالتعبير القرآنى يتهكم به ويسخر منه مصورا حركة اختياله بأنه يتمطى أى يمط فى ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها ، وهناك من أمثال أبى جهل ممن هم على شاكلته فى فعل الشر والاختيال به،فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب· والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد فى قوله تعالى : « أولى لك فأولى » « ثم أولى لك فأولى » وهذا دعاء عليه بأن يليه المكروه يعنى انك أحق به ثم انك أحق به أو انه خبر مبتدأ مضمر تقديره : العقاب أولى لك أو الهلاك ، فالتكرار هنا للمبالغة فى التهديد والوعيد ·

الكشف عن ساق :

فى قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون »(١) الكشف عن ساق مثل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب والهول • وأصله أن المرء اذا هلع أن يسرع فى المشى ويشمر ثيابه فيكشف عن ساقه ، كما يقولون : فلان شمر عن ساعد الجد ، وأيضا كانوا فى الروع والهزيمة تشمر الحرائر عن سوقهن فى الهرب أو فى العمل فتنكشف سوقهن بحيث يشغلهن هول الأمر من الاحتراز من ابداء ما لا تبدينه عادة فيقال : كشفت عن ساقها أو شمرت عن ساقها •

وقالوا : كشف المرء عن ساقه كناية عن هول أصابه وان لم يكن كشف ساق ، وقالوا : كشفت الحرب عن ساقها اذا اشتدت وحمى وطيسها، وقالوا : قامت الحرب على ساق اذا جرت الحرب على أفضل ما يكون من تنفيذ الخطة وفاعلية الضرب على العدو • ومعنى الآية : يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدة والروع فكشف الساق كناية عن الشدة ، ودليلنا على ذلك ما روى من أشعار العرب فقد قال ابن عباس : « اذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب ، وعندما سئل عن هذه الآية قال : أما سمعتم قول الشاعر :

صبرا عناق انه لشر باق   قد سن لى قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق

---

(١) سورة القلم آية : ٤٢ •

وقـال الراجــز :

عجـبت من نفسى ومن اشـفاقها
ومن طـرادى الخيـل عن أرراقها

فى سـنة قد كشفت عن سـاقها
حمـراء تبرى اللحم عن عراقهـا

ويقـول حـاتم الطـائى :

أخو الحرب ان عضت به الحـرب عضها
وان شمرت عن ساقها الحرب شـمرا

وقال آخـر :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

وقال الراجز :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والزمخشرى ذكر تفسيرا رائعا لهذه الآية فقال : يـوم يكشف عن ساق : فى معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ، وانما هو مثل فى البخل ويبين الزمخشرى سر مجىء الساق منكرة فيقول : فان قلت : فلم جاءت منكرة فى التمثيل؟ قلت : للدلالة عـلى أنه أمر مبهم فى الشـدة منكر خـارج عن المألوف • كقوله تعالى : « يوم يدع الداع الى شىء نكر » ومجىء الساق منكرة دليل على بطلان مذهب المشبهة الذين يقولون ان المراد من قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق» هى ساق الرحمن ،

ولو كان المراد بها ساق الرحمن لعرفت لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهى ساق الرحمن(١) .

ونحن نقول فى انتظام العمل وجدته فى المصنع مثلا : الأمور فى المصنع تجرى على قدم وساق .

وجاءت الساق معرفة فى آية أخرى فى قوله تعالى : « والتفت الساق بالساق » عند الموت تلتوى الساق وتلتف بالأخرى أو المراد : التفاف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما فى ثوب الكفن ، فكل ساق منهما ملتفة صحبة الساق الاخرى . أو أن يكون هذا كناية عن الشدة كما مر فى آية القلم .

وقد وردت مجموعة فى قوله تعالى : « ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق أى جعل سليمان عليه السلام يمسح السيف بسوق وأعناق خيله أو مسحها بيده استحسانا لها واعجابا بها » .

وقد وردت مثناة فى قوله تعالى : « فكشفت عن ساقيها » عندما قيل للملكة سبأ ادخلى الصرح«فلما رأته حسبته لجةوكشفت عن ساقيها » . والساق المعرفة والمجموعة والمثناة هى الساق على الحقيقة أما المفردة المنكرة فهى على المجاز كما بينا .

---

(١) الكشاف ١٤٧/٤ .

حـركة القـدم :

قال تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها »(١) الزلل : تـزلق الرجل وتنقلها من موضـعها دون ارادة صاحبها بسبب ملاسة الأرض من طين رطب أو تخلخـل حصى أو حجر من تحت القدم فيسقط الماشى على الأرض ، وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرض للضر ، لأنه يترتب عليـه السقوط أو الكسر ، كما أن ثبوت القـدم تمكن الرجـل من الأرض ، وهو تمثيل لاسـتقامة الحال ودوام السـير ، وهذه الآية الكريمة جـاءت لتوكيد الوفاء بالعهـود والمواثيق التى أعطيت باسم الله وتحذير من الاستخفاف بجلال الله الذى أشهد على هذه العهود والمواثيق ، فانه لا يجرؤ على النكث بعهـد الله الا من استخف بالله ، واتخذ من اسمه الكريم وسيلة يتوسـل بها الى الغدر بالناس ، فقد صورت الآية من ينحرف عن الدين أو شبهت حالهم بحال الماشى فى طريق بينما كانت قدمه ثابتـة اذا هى قد زلت به فصرع بجامع الهيئة الحاصلة من الانحراف بعد الاسـتقامة . ثم اسـتعير التركيب الدال على المشـبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فازلال القدم اشارة الى أن الاستخفاف باسم الله ونقض العهد الموثق باسمه ، هو مزلق الى الكفر حيث ينزلق الانسان شيئا فشيئا اليه فتزل قدمه عن طريق الحق فاذا لم ينتزع نفسه مما وقع فيه مضى به الطـريق الى حيث يضع قدميه جميعا على طريق الضلال ثم يمضى فيه الى

---

(١) من الآية ٩٤ من سورة النحل .

غايته(١) ، والعـرب تقول لمن سـقط فى ورطة زلت قـدمه كقول الشاعر :

سيمنع منك السـبق ان كنت سـابقا
وتقتـل ان زلـت بـك القـدمان

(٢) التفسير القرآنى للقرآن د/ عبد الكريم الخطيب ١/ ٣٥٦ .

حركة الأعنـــاق :

فى قوله تعالى : «فظلت أعناقهم لها خاضعين»(١) روى عن ابن عباس قوله : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعـد معاوية ، والمعنى انهم اذا ذلت رقابهم ذلوا ، فالاخبار عن الرقاب اخبار عن أصحابها فالتعبير بخضوع الأعناق كناية عن الاذعان والانقياد ، ولما كان الخضوع وضده يظهر فى الرأس والعنق جعله محله ، لأنه يتراءى قبل التأمل أنه هو الخاضع دون صاحبه ويرى المرحوم سيد قطب أن المراد من الآية : أنه لو شئنا أن نكرههم على الايمان لأكرهناهم ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ولا انصرافا عن الايمان ، ويصور خضـوعهم لهذه الآية بصورة حسـية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » ملـوية محنية حتى لكأن هـذه هيئة لهم لا تفارقهم فهم عليها مقيمون »(٢) فهم هذا الاستمرار من التعبير بالفعل الدال على ذلك وهو « ظلت » ومن الاخبـار بالاسـم « خاضعين » دون الفعـل مما يفيد ثبوت خضـوعهم واسـتمراره كما فى قوله تعـالى : « وكلبهم باسط ذراعيـه بالوصـيد » فيفيد هـذا التعبير ثبات كلبهم على هيئة البسط واستمراره • فلـو شاء الله أن ينـزل آية قاهرة مادية تلـوى الأعناق وتخضعها وتضطرها الى التسليم لفعل ذلك ، ولكنـه لم يشأ ذلك لأنه قرر فى آية أخرى : « لا اكراه فى الدين »فالذى يأوى الى ظل الايمان لابد أن يكون مختارا طائعا غير مكره •

---

(١) سورة الشعراء آية ٤ •

(٢) فى ظلال القرآن ٢٥٨٤/٥ •

وهذا المعنى أنسب للسياق لأن الآية السابقة تصور مدى معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم وضيقه من عدم ايمانهم حتى انه ليكاد يبخع نفسه أى يقتلها هما وحزنا بسبب تكذيبهم وهم أهله وعشيرته وقومه ، فربه يخفف من آلام نفسه ويسرى عنه هذا الهم القاتل ويهون عليه الأمر ويقول له : ان ايمانهم ليس مما كلفت به لأنه ليس بمقدور اك وانما القادر على ذلك الاكراه هو الله تعالى وحده وهو لم يشأ أن يكون لأن الله تعالى خلق للناس عقولا وأرسل اليهم الرسل ومعهم الكتاب والحكمة للدعوة الى الايمان بالله مما يهيىء العقول للنظر الصحيح والفهم الواعى للاعتراف بالحق والايمان بالله • ليتسنى ترتب جزائهم على أعمالهم التى كلفوا بها اختيارا منهم • فهو سبحانه وحده هو القادر على توجيه البشرية الى الفطرة الصادقة والايمان بالله والتى تعارضها مقتضى الطبيعة والحيلة الانسانية ، ولا يقدر على هذا التوجيه الا الله تعالى ، قال تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين •• » ويقول الزمخشرى : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم : ذهبت أهل اليمامة كأن الأهل غير مذكور(١) •

والمثال الذى ذكره الزمخشرى لتنظير الآية ليس دقيقا ، لأن « أهل » فى المثال غير مقحم ، لأنه المقصود بالحكم اذ هم أى

---

(١) الكشاف ٣/

أهل اليمامة هم الذين ذهبوا حقيقة ، فأما التأنيث فلاكتسابه التأنيث بالاضافة كما فى قوله :

شرقت صـــدر القنـــاة من الدم

وهنا سؤال لماذا أتى بجمع السلامة دون الافراد والتكسير اذ أن جمع السلام مختص بالعقلاء ، والأعناق ليست كذلك ؟ والجواب عنه بوجوه ·

أحدها : أن المراد بالأعناق الرؤســاء كما قيل : لهم وجوه وصـــدور ·

الثانى : انه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الأعناق ·

ثم حذف وبقى الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعـاة للمحـذوف ·

الثالث : انه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالاضافة لمؤنث ·

الرابع : أن الأعناق جمع عنق من النـاس وهم الجمـاعة فليس المراد : الجارحة · وهذا قريب من معنى الأول اذ المـراد بهم جماعة الناس مطلقا رؤســاء كانوا أو غيرهم ، والتعبير على الوجهين الأول والرابع من المجـاز المرسل الذى علاقتـه الجزئية كما مر ·

الخامس : انهـا عوملت معاملة العقـلاء لمـا أسند اليهم ما يكون من فعل العقـلاء كقوله : « ساجدين » و « طائعين » فى السجدة ويوسف(١) ·

---

(١) الدر المصون ٥/٢٦٨ ·

الهيئة الجسمية حين الخوف :

يصور القرآن حركة الجسم فى اسراعه وهيئته بمد العنق وتصويب الرأس مع فتح العينين وادامة النظر وذلك حين الخوف والفزع ٠

وقد ورد اللفظ المعبر عن هذه الحركة وهذه الهيئة فى ثلاث آيات فى القرآن وهو لفظ الاهطاع ٠ قال تعالى فى سورة ابراهيم « مهطعين مقنعى رؤوسهم » ٠

وقال فى سورة القمر : « مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » ٠

وفى سورة المعارج : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين » وقد مر الحديث عن الآية الأولى أما الآيتان الثانية والثالثة فتقول: ان المشهد الذى وردت فيه هذه الكلمة من مشاهد يوم القيامة وهو مشهد حركى شاخص يصور فيه المولى عز وجل حالة الناس عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب بعد أن يدعو الداعى أو ينادى المنادى وهو اسرافيل يدعوهم الى شىء عظيم مهول ، لأن ما لفظ شىء من الابهام يشعر بأنه مهول وقد وصف هذا الشىء بأنه نكر أى موصوف بأنه منكر فظيع تنكره النفوس لانها لم تعهد بمثله ، وهو هول يوم القيامة ، ويشخص حالة الناس عند خروجهم من قبورهم فى خوف وذلة ينظرون من طرف خفى لا تثبت أحداقهم فى وجوه الناس وهى نظرة الخائف المفتضح ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة

والانخذال،لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما(١) ثم يصور خروجهم جميعــا من قبورهم فى لحظــة واحدة كأنهم جراد منتشر وهذا التشـبيه يوحى بالحركة والكثرة اذ الجراد مثل فى الكثرة والتموج يقال فى الجيش الكثير المائج بعضه فى بعض جاءوا كالجراد وهم فى كثرتهم هــذه يهطعون الداع أى انهم مسرعون اليــه مادى أعنــاقهم اليه لا يلتفتــون الى شىء غيره • وفى قوله تعالى : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين » • أى مسرعين نحــوك مادى أعنــاقهم اليك مقبلين بأبصــارهم عليك فيه معنى التعجب من حالهم لاسيما وهم فى حضرة النبى صلى الله عليــه وسلم •

والكفار ينظرون الى النبى صلى الله عليه وســلم فى غيظ عنيف وحسـد عميق ينسـكب فى نظـرات مسـمومة قاتلة يوجهونها اليه يصـفها القرآن فى قوله تعــالى : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمـا سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » فهذه النظـرات تكاد تؤثر فى أقدام الرســول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها يعنى أنهم من شــدة تحديقهم ونظرهم اليك شزرا بعيـون العـداوة والبغضــاء يكــادون يزلون قدمك أو يهلكونك من قولهم نظـر الى نظـرا يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله وقيل : أراد ليعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه

---

(١) الكشاف ٣٦/٤ •

عداوة لك وحسدا • وجاء « يكاد » بصيغة المضارع للدلالة على تجدد الفعل فى المستقبل واستمراره وجاء فعل « سمعوا » ماضيا • وفى هذا التعبير استعارة بالكناية شبهت الأبصار بالسهام ، ورمز الى المشبه به بما هو من روادفه وهو فعل « يزلقونك »(١)

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٠٨ •

حركة القلوب وبلوغها الحناجر :

فى قوله تعالى : « اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »(١)٠

يصور الله عز وجل حال المسلمين عند مجيء الأحزاب من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، والخوف والفزع والكرب قد استولى على المسلمين ويرسم الله حركة الأبصار والقلوب تجاه هذا الموقف المهول حتى لكأننا نراه ماثلا أمام أعيننا فالخوف شعور نفسى داخلى ولكن الله تعالى يكشف عن أثره فى أعضاء الجسم البشرى بتصور مداه فى ملامح الوجوه وحركة الأبصار والقلوب ، فحركة الأبصار هى الزيغ وهو الميل عن الاستواء الى الانحراف فزيغ البصر أن لا يرى ما يتوجه اليه أو أن يريد التوجه الى صوب فيقع الى صوب آخر من شدة الرعب والفزع ٠ وقيل : زاغت بمعنى مالت ، فلم تلتفت الا الى عدوها دهشا من فرط الهول ٠ وقيل : مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا وحركة القلوب بارتفاعها حتى تصل الى الحناجر ، والحنجرة : رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم ، والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، وعلى هذا تكون القلوب قد زالت عن أماكنها فى الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ٠ وهنا نتساءل هل هذه الحركة المعبرة عن الخوف والفزع حقيقة أو مجاز عن شدة الخوف وجهان ٠

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٠ و ١١ ٠

أحدهما : قالوا ان الرئة اذا انتفخت من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت أى زاد حجمها وانتفخت فارتفعت عن مكانها ، وارتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة • ومن ثمة قيل للجبان انتفخ سحره ، وعلى هذا تكون حركة القلب حقيقة بارتفاعه الى الحنجرة •

والوجه الثانى : أنه مثل لاضطراب القلوب ووجيبها من الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فاذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب تجاوز موضعه ، وذهب متصاعدا طالبا الخروج فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين •

وقد يكون المراد هو اضطراب القلب وضرباته أى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة على المبالغة ، وليس الكلام على الحقيقة فان القلوب لا تتجاوز مكانها ، وقريب منه قولهم : « تنفس الصعداء » « وبلغت الروح التراقى » •

ويقول الرازى : وقوله تعالى : « وبلغت القلوب الحناجر» كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع، وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة ، وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف(١) •

ويصور المولى عز وجل حركة القلوب بتجاوزها موضعها

---

(١) التفسير الكبير ١٢/٥٧٩ •

حتى تصل الى الحناجر وذلك من هول يوم القيامة فى قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين »(١) ، ومعنى القلوب لدى الحناجر : أن القلوب يشتد اضطراب حركتها من فرط الجزع مما يشاهده أهلها من بوارق الأهوال حتى تتجاوز القلوب مواضعها صاعدة الى الحناجر فى حال كظمهم لما فى دواخل نفوسهم فلا يستطيعون الكلام ، قال تعالى : « اليوم نختم على أفواههم .. » فقوله : « كاظمين » قد يكون حالا من أصحاب القلوب المضطربة ، وقد يكون حالا من القلوب نفسها على معنى أن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

ويرى بعض المفسرين أن هذا التعبير محمول على الكناية عن شدة الخوف ، وبعضهم يرى أنه محمول على ظاهره ، وحمله على الظاهر أولى ، لأن شئون يوم القيامة وأهوالها شيء عظيم ، ووصف فى أكثر من موضع أحوال الناس وما يلاقونه من أهوال يشيب لها الولدان .

---

(١) سورة غافر آية : ١٨ .

« قضـاء التفث » :

فى قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم »(١) قيل : التفث هو الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الابط وحلق العانة ، وهو من تفث الرجل اذا كثر وسخه فى سفره ، ومعنى ليقضوا : ليصنعوا ما يصنعه المحرم من ازالة شعر وشعث ونحوهما عند حله ، وفى ضمن هذا قضاء جميع المناسك اذ لا يفعل هذا الا بعد فعل المناسك كلها ، وقيل فيه دلالة على التحلل الأول وذلك يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة اذ يباح له كل ما كان محرما عليه بالاحرام ماعدا النساء فله أن يمس الطيب ويلبس الثياب وحلق الشعر أو تقصيره وقص الأظافر وغير ذلك • أما حقيقته الشرعية فاذا نحر الحـاج أو المعتمر هديه وحلق رأسـه وأزال وسخه وتطهر وتنقى ولبس فقد أزال تفثه ووفى نذره(٢) • وهذا التعبير يشير الى الكناية فانه يلزم من قضـاء التفث على المعنى الشرعى قضاء جميع المناسك •

ولا شك أن المحرم يناله من الشعث والوسخ نتيجة السفر والتنقل من مكان لآخر لأداء المناسك لاسـيما فى أوقات الحـر الشديد ممايؤدى الى تصبب عرقه ، قيل لبعض الصلحاء ما المعنى فى شعث المحـرم ؟قال : ليشـهد الله تعـالى منك الاعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته • قال نفطويه : سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم »؟ فقـال : ما أفسر القـرآن ، ولكننا نقول للرجل ما أتفسـك وما أدرنك »(٣) •

---

(١) تفسير القرطبى ٤٤٤٣/٧ •　　(٢) سورة الحج آية ٢٩ •

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦٩/١١ •

المصادر والمراجع

١ — اسم الاشارة فى القرآن الكريم — مواقعه وأسراره البلاغية للدكتور محمد عبد المنعم — رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق ٠
٢ — الاعجاز البيانى للدكتورة بنت الشاطىء ط دار المعارف — الطبعة الثانية ٠
٣ — أصول الفقه للسرخسى ط دار الكتاب العربى — القاهرة ١٣٧٢ ٠
٤ — الاكسير فى علم التفسير — ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ٠
٥ — البيان والتبيين للجاحظ ط دار المعارف — مصر ٠
٦ — البلاغة القرآنية للدكتور محمد أبو موسى — مطبعة وهبة ٠
٧ — التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور — الدار التونسية للنشر ٠
٨ — تزيين العبارة لتحسين الاشارة لملا القارى ٠
٩ — التفسير القرآنى للقرآن د/ عبد الكريم الخطيب ٠
١٠ — تفسير القرطبى — دار الريان للتراث ٠
١١ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن للرضى ٠
١٢ — حاشية قطب الدين الرازى على الكشاف مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة رسالة دكتوراة — للدكتور أيوب عبد العزيز أيوب ٠
١٣ — الخصائص لابن جنى — تحقيق محمد على النجار — الطبعة الثانية
١٤ — الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى — ط دار الكتب العلمية بيروت — لبنان — الطبعة الاولى ٠

١٥ - دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر - تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجى .

١٦ - سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د/ محمود توفيق - مطبعة الامانة ١٩٩١ .

١٧ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى - ط أولى - نشر دار الكتب العلمية - لبنان .

١٨ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقى .

١٩ - شرح الكافية البديعية - ط مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٨٣.

٢٠ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية - للدكتور أحمد موسى ط وزارة الثقافة .

٢١ - الفوائد المشوق لابن قيم الجوزية - نشر دار الكتاب العربى بيروت

٢٢ - فى ظلال القرآن لسيد قطب - مطبعة الشروق .

٢٣ - الكشاف للزمخشرى - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٤ - لسان العرب لابن منظور المصرى ط المعارف .

٢٥ - مفاتيح الغيب للرازى - نشر دار الغد العربى - القاهرة الطبعة الاولى

٢٦ - نقد النثر لابن وهب الكاتب تحقيق د/ طه حسين .

٢٧ - المنزع البديعى فى تجنيس أساليب البديع - مكتبة المعارف - الرباط - المغرب .

الفهـــرس

القسم الأول

التصوير بالاشارة (الحسية والمعنوية)

القســم الثـاني

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٩٣/١٩٩٤
٢٠/١١/١٩٩٤